

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01034 4327

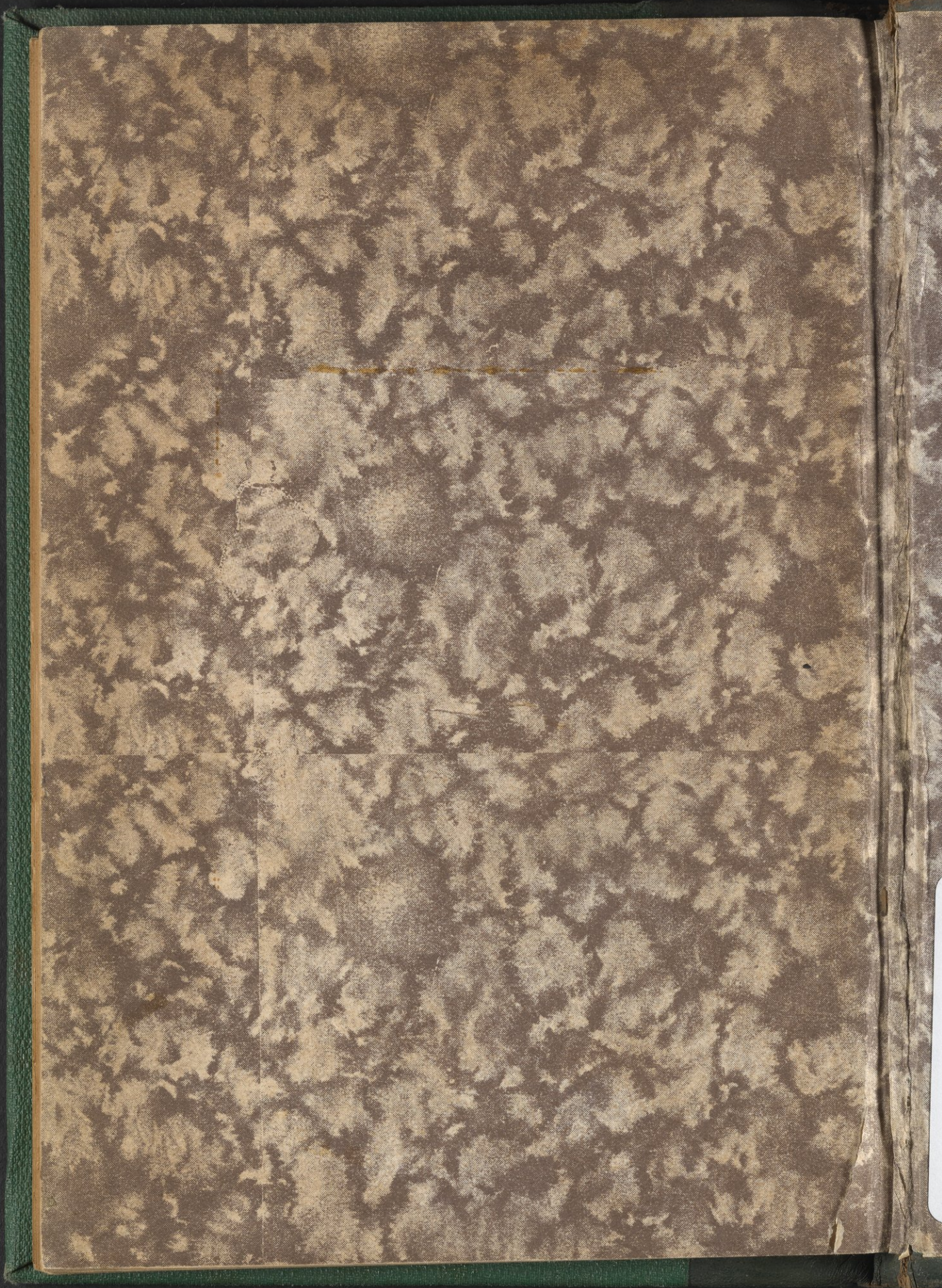
21
60
A
10

Library of
The American University
at Cairo

Blessed is the man that
findeth wisdom and
the man that getteth
understanding .+ .+.+

PROVERBS 3-13

Ex libris datis
in memoriam
Mrs Polk Mc Kinney
Pittsburgh, Pennsylvania



04 - B5015

بجنته ايجيل اجديد

DA
60.3
A6
W312X
1945

للبنبي في مصر

بقلم
المارشال ويشل

ترجمة

على إبراهيم الاقطس ورضي عنى كامل فوده

الناشر: مكتبة نهضة مصر بالقاهرة تليفون ٥٠٨٤٧

923-2
Al53W

9c, etc
J. S.

27705

مقدمة

لا نريد بهذه المقدمة أن نعرض لحوادث الكتاب ولحكم ويقل عليها بنقد تفصيلي ، فذلك ما لا سبيل إليه الآن ، كما هو أمر متروك لفتنة القارئ ولكتاب نقده في المستقبل القريب عن أخطاء السياسة المصرية الحديثة ، إنما أردنا أن نشير فقط إلى بعض النقط البارزة التي يمكن ملاحظتها بسرعة .

لقد اخترنا هذا الكتاب لأسباب عدة : لأهمية الموضوع الخاصة بالنسبة لنا كمصريين ، إذ هو يتناول حقبة من أهم الحقب التي مرت بنا في تاريخنا الحديث ولأهمية النبي نفسه باعتباره رجلا من كبار الإنجليز ، ولصلته الوثيقة بتلك الحقبة من تاريخنا ، ثم لأهمية ويقل كذلك بوصفه قائداً بريطانياً عظيماً اتصل بمصر وعرف المصريين وكانت له بالنبي أيضاً صلة قوية ، ثم للصراحة العارية والنفوذ العجيب والإمام السكافي والفهم الدقيق للواقف والحوادث والأغراض والأشخاص التي أملت على السياسة المصرية الإنجليزية في تلك الحقبة المزدهجة بالمتناقضات في تاريخ مصر وتاريخ النبي وانجلترا في ذلك الوقت ، وللأسلوب الذي كتب به الكتاب وهو أسلوب مركز حاسم لاذع يشبه الطلقات النارية أو يشبه مشية الجندي القوي الصريح الصارم الذي يتعجل هدفة في رصانة وثقة ، ويقصد إلى الحقيقة ويظهرها في أقل مساحة ممكنة وأقصر وقت مستطاع ، مما يجعل ويقل بحق من أحسن كتاب التراجم المحدثين .

ولسوف يرى القارئ كثيراً من الطعون توجه إلى شخصيات ألف أن يذكر اسمها أمامه مقترنا بكثير من فروض التوفير والتقدير ، حتى لقد يبلغ به الألم أحياناً حد الإشتزاز ، وخاصة عندما يوجه الطعن إلى أعز الأشخاص علينا وأقدس المعاني بالنسبة لنا ، ولكن ذلك نفسه بعض غرضنا من هذه الترجمة ، فلا يجب أن يعيننا الحب لشخصية من الشخصيات أو الاعزاز لحرمة من الحرمات عن الاستماع في أناة إلى ما يوجه لها من نقد أو ما يؤخذ عليها من عيوب ، فإن ذلك أدعى إلى ثبات هذا الحب ومعقوليته وأحرى أن يجد له من الأسباب الحققة ما يدعو إليه ، وحتى لا يكون

حينما أو إعراز نا مجرد هوى سريع أو نزعة غالبة ، أو مجرد تعصب أحق وحماس جهول .
ثم إن في هذا الكتاب لعرضا عميقا صادقا لطريقة بريطانيا التقليدية — وهي
مالا بدلنا من إدراكه إذا كنا نريد أن نصل إلى شيء من النجاح معها ،
إذ لا بد من الفهم الصحيح لعقلية اللاعب الذى تنازله أو تشاركه ولأسلوبه ، إذا
كنت تبغى الوصول بعملك هذا إلى نتيجة ذات قيمة فى الحقيقة ، إذ لا يكفى أن
تنازله أو تعاونه هكذا اعتباطا أو حينما يتفق لك ، تاركا مجرى الحوادث لسلطان
الفوضى من ناحيتك ولسلطان الاستغلال من ناحيته ، أو جاهلا بحقيقة المصير
الذى تنساق إليه لجهلك بحقيقة التصرفات والأغراض من ناحيتك وناحيته .

نعم ، لقد أصبحت مشاكل السياسة المصرية « من صنع المصريين » .
ولعلنا نفهم — بعد القراءة — مواقف قوتنا ومواقف ضعفنا ، وأن نعرف
أسباب القوة والضعف فهى أسبابهما دائما . وأن نعلم ان السياسة الدولية لا يدعمها
غير القوة ، سواء الحربية أو الاقتصادية أو النفسية .

إننا مقدمون على فترة كالفترة المدروسة فى هذا الكتاب ؛ لنا نفس الآلام ،
ولنا عين الأمانى . فعسى أن ننظر لأنفسنا نظرة فاحصة نزيهة ، لا نحايبها ولا
ولا تتملقها ، وعسى أن نتعظ بأخطائنا وندرك حقيقة موقفنا ؛ وعسى أن نسير
على هدى من أغراضنا وهدى من وسائلنا ، وعسى أن نعرف ما حققناه — إن
كنا حققنا شيئا — من آمالنا ، ونعرف ما بقى علينا أن نحققه منها .

ونحن من دعاة الاتفاق بين مصر وبريطانيا . ولكن ليست العبرة بكلام يكتب
أو بأنظمة تقام ، بل العبرة بالتنفيذ والعبرة بخلوص النية وعقد العزيمة على المطابقة
بين ما كتب وأقيم وبين حقيقة جوهره ومعناه . ولقد أدت مصر واجبها فى هذه
الحرب ، وقدمت لبريطانيا أقصى ما يمكن من صنوف المساعدات والعون ، وكان
يحدوها فى ذلك الاخلاص والفهم . فعسى إذن أن تقدر بريطانيا الديمقراطية قيمة
الصدقة الحقة ، وقيمة الآلام الصادقة الحقة ، وقيمة الآلام الصادقة فى نفسية

الشعوب ؟

المترجم

مقدمة المؤلف

انتويت الترجمة لألنبي من سبع سنوات تقريباً ، أى بعد وفاته بقليل . وكنت إذ ذاك قائد فيلق في ألدرهورست ، ولكن كنت يوماً مشغولاً ، إلا أن عملي لم يكن ليقتل أملى في تحقيق ذلك الغرض بعد وقت معقول . كنت في حاجة إلى شهرين عدة أجمع فيها مواد كتابي ، لأن ألنبي لم يترك أى تقرير عن حياته ولم يخلف أية أوراق خاصة به . ولم أكد أبدأ الكتابة حتى أرسلت إلى قيادة بفسطين وما أسرع أن أصبح على معالجة أمر ثورة هناك . ثم عدت إلى إنجلترا في سنة ١٩٣٨ لتسلم « القيادة الجنوبية » ، وهى أكثر قيادات إنجلترا عملاً — فلم يعد في مكنتى مرة أخرى سوى أن أوفر قليل من الوقت للكتابة . حتى إذا أمرت بالسفر إلى الشرق الأوسط — قبيل قيام الحرب الحالية بشهرين — كنت قد فرغت تقريباً من الترجمة لألنبي في حياته الحربية ، ثم أخذت بعد ذلك في كتابة الجزء الذى يعادله أهمية — إن لم يزد عليه — وهو عمله كعمد بريطانى في مصر . ولما رأيت الأمل قليلاً في إتمام هذا الجانب — طالما ستستمر الحرب — اتخذت العدة لنشر ما انتهيت منه فعلاً ، تاركاً قصة المسألة المصرية إلى ما بعد الحرب . وكانت النتيجة أن نشر كتابي « ألنبي . دراسة في العظمة » في سنة ١٩٤٠ . قصصت فيه حياة ألنبي حتى نهاية حربه ضد الترك في سنة ١٩١٨ .

ولقد بدا لى من المؤسف — فى العامين الأولين للحرب عندما كانت قيادتى العليا بمصر . ألا أستفيد من وجودى هناك وألا أقوم على الأقل بجمع المواد اللازمة من الذين عرفوا ألنبي وعملوا معه — بريطانيين ومصريين — ثم تم لى — بالتدريج جميع المواد لهذا الكتاب . ولقد كنت أكتبه فى ساعات — أو أنصاف ساعات الفراغ التى أتاحت لى ، وكثيراً ما كانت تفصل بينها أيام أو أسابيع وأحياناً شهور كل ذلك فى خلال عامين من المجهود الحربى الشاق . بل لقد كنت أكتب بعضه أثناء رحلاتى

بالطائرة ، ولما أن نقلت إلى الهند نحيت ما كتبتّه جانباً — إلا أنى شعرت بعد ذلك بأن نشر شجاعة النبي وزعامته على الناس ربما تكون وحيأ لهم في هذه الأيام القاسية وعلى هذا قمت أخيراً بمجهود خاص لمراجعة الكتاب وإتمامه .

لم يسبق لأحد نشر قصة النبي في مصر بالتفصيل ولا بما يليق به . وكتاب لورودلويد « مصر منذ كرومر » كتب بالتأكيد من غير معرفه تامة للحقائق . كان النبي لا يعنى إلا بالنتائج التي يصل إليها فقط ولم يسلك أبداً طريق تبريرها أو توضيحها . وأنى لآمل أن يستطيع كتابي هذا — ويمكن الاعتماد على ما فيه من حقائق — تقديم حكم أكثر صواباً على حياته وأخلاقه . وأعتقد بأنه جدير بأن ينضوى تحت عنوان كتابي السابق « دراسة في العظمة » كذلك أعتقد أن المعاونة الصادقة التي قدمتها لنا مصر في هذه الحرب — وخاصة حين بدأ نصرنا مشكوكاً فيه عند المصريين — إنما ترجع إلى حد ما — لما تركه فيها النبي من أثر للعزيمة البريطانية وللمعاملة الطيبة .

ولما كان سيظهر هذا الكتاب بعد الجزء الأول بمدة طويلة ، رأيت أن أعيد هنا نشر فصلين منه هما « النبي الرجل » و « النبي الجنرال » وهما يلخصان خلق النبي وصفاته الحربية ، وسيساعدان القارئ في تقدير تاريخ حياة النبي وأخلاقه كوحدة كاملة .

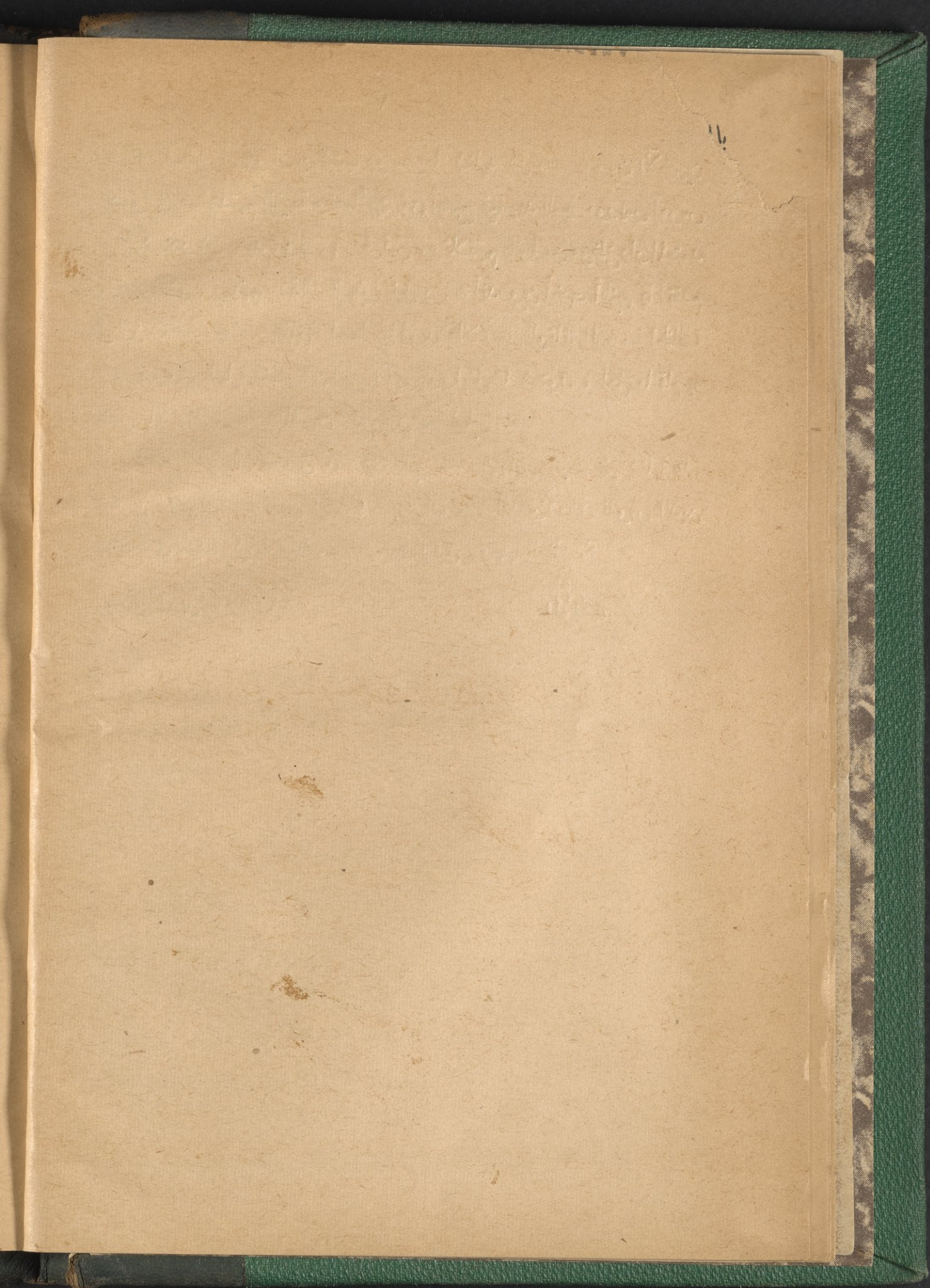
وإنى لمدين بالشكر لرجلين عاوناني بسخاء بما قدماه من معلومات هما : سير والفورد سلبى وچوالديلانى . وقد عاشا أيام الحوادث التي وصفتها وكانت لهما معرفة تامة بمن تكلمت عنهم من الشخصيات فوق ما لهما من فهم عميق لروح التاريخ . فأعطاني سلبى باعتباره موظفاً بدار المعتمد البريطاني بالقاهرة ثم بوزارة الخارجية البريطانية — وجهة النظر الحفية ، أى وجهة النظر الرسمية . وكان ديلانى — بصفته مندوباً لرويتير — على اتصال وثيق بالدوائر الرسمية وغير الرسمية ، مصرية وبريطانية وليس يعادل معلوماته وحكمه على مجرى الحوادث بمصر شيئاً . وإنه لأكثر منى جدارة لوضع هذا الكتاب ، لكننه — بدلا من ذلك وهبني معلوماته

ومساعداته . لكنني أرجو أن يكتب هو سريعا كتابه عن مصر . وبين الآخرين الذين قدموا لي مساعدتهم القيمة ونصائحهم من أصبح فيما بعد السير موريس أموس والسير ألكسندر كين بويد ، و ر . ١٠ . فرنس ، وثلاثتهم كانوا من موظفي دار المعتمد أثناء وجود النبي ، وبينهم كذلك الكولونيل ر . ه أندروين أخت النبي كما أتقدم بالشكر لوزارة الخارجية البريطانية لسماحها لي بالاطلاع على الوثائق الرسمية الخاصة بتلك الفترة . وفي النهاية أشكر ابن عمي رايوند وايشل باكستون ، لكل ما قام به فيما يخص بالاتفاق لي مع الناشرين في الوطن مع غيابي عنه .

وإني لأشعر بالأسف العميق أن لادى النبي — وهي التي طلبت مني كتابة هذه المذكرة عن زوجها — لم تعش لترى هذا بعد أن تم . لقد تركت في نفوس الذين عرفوها ذكرى سيدة كريمة نبيلة ، كانت خير رفيق لزوجها العظيم ؟

المؤلف

نيو دلهي إبريل سنة ١٩٤٣



النبى فى مصر

لم يحفل النبى بما سيكتبه المترجمون له ، أو بأن تكتب ترجمة له على الإطلاق ؛ فلم يعن بتفسير نجاحه ولا بتبرير أى عمل قام به ، بل كان لا يحمل ضغينة لمنتقديه أو منقصيه ، كذلك لم يترك أى تقرير عن حياته أو أى مادة تؤلف مثل هذا التقرير إذ كان ربما بالذين يسترجعون الحوادث الماضية قائلاً إن المستقبل وحده هو المهم .

ومع كل فن المستحسن أن نحاول سرد قصته ورسم صورته . وليست الفائدة فقط فى الترجمة لجندى ناجح فى أشد الحروب امتحانا للنفوس ، وإدارى حكيم فى بلاد مضطربة وفى أوقات حرجة ، بل إن خلق النبى كان من الندورة فى صدقه وقوته بحيث يصلح أنموذجا ، ومع ذلك فقد كان ذا فطرة — رغم فظاظتها وعنفها أحيانا — تستطيع أن تفلت من الكراهية التى يستشعرها معظم الناس لمن ينصب أنموذجا لهم .

لقد توطدت شهرة النبى كجندى بحملتين عظيمتين فى فلسطين وسوريا . كانت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ — سنة ١٩١٨ فى غالبها شاقة قاسية ، مفتتة للقلوب وقليل من مناورات تلك السنوات مأسوف يذكره الناس ويتدارسونه كأمثلة للفن الاستراتيجى ؛ فمعارك المارن وتاندرج وحملات الجبهة الروسية سنة ١٩١٤ و سنة ١٩١٥ واكتساح الصرب ورومانيا والعمليات التى بدأت عند غزة — بيرشيبه وانتهت بسقوط بيت المقدس والقضاء التام على الجيوش التركية فى فلسطين وسوريا ، كل هذا سيكون المادة الأساسية لدراسة تحليلية . وفى اثنتين منها كانت اليد العليا للنبى ؛ ولو أنه فى الحق كان يمتاز فى انتصاراته

على عدوه بالعدد والعدة إلا أن طريقة إنجازها تدل على قوة في التصور وصلابة في التنفيذ يجب أن تعليا قدره بين عظام القواد الحربيين ، فبداية معركة أراس في ابريل سنة ١٩١٧ تبين أنه حتى في ظروف حرب الخنادق السيئة كان يضع خططه بطريقة مبتكرة ، ولو قد بقي بفرنسا يومئذ وأتيحت له الفرصة الكافية فلربما استطاع أن يأتي بما يحسن الموقف الحربي ويعجل بنهاية ذلك الصراع الطويل . وما يجدر ذكره هنا أن اثنين من مشاهير ضباط فرقة الدبابات قررا أنه كان أكثر ضباط القيادة العليا في الجبهة الغربية فهما إذ كانت له حقا صفات الشجاعة والولاء واستقامة الفكر ووضوح الغرض والدراية بمهمته وحسن التصرف في تطبيق معلوماته ، مما يجعله جنديا عظيما في أى عصر وفي أية ظروف .

ولقد أظهر نفس هذه الصفات وزاد عليها جلدأ وتسامحا أصليين في نفسه - ولو أن مظهره وتصرفه لم يوحيا بذلك دائما - أظهرها أولا في إدارة أراضى العدو المحتلة التي اكتسحتها جنوده في فلسطين وسوريا ثم في أرض مصر العتيقة الخادعة أثناء فترة دقيقة وخطيرة . أما نجاحه كدبلوماسى وإدارى فقد كان محلا للنقاششة أكثر مما كانت مقدرته كجندى ، ولقد انتقدت بمرارة معالجته للمسألة المصرية في بعض الدوائر فهل رد عن نفسه قط أو دافع ؟ كلا . لم يكن ذلك سبيله ومع ذلك فسيأتى اليوم الذى تتمكن فيه من تقديم ما يحسن فهمنا وحكمنا على ما قام به في مصر ، بل ها هو ذا مجرى الحوادث خير برهان على بعد نظره وحسن فهمه .

ولسوف تبقى التقارير والمستندات الرسمية لانتصاراته كجندى ولنجاحه أو فشله كإدارى في متناول استراتيجي المستقبل ومؤرخيه ليحللوه ويناقشوها

ولكن التاويخ وخاصة الحربى منه جاف داع للخطأ مجرد من الفهم الواضح للشخصيات ولدوافع القائمين بالدور الأول فيه، فهو شبيه بالطعام المحفوظ: تنقصه القيمات الضرورية للصحة. إن غرض هذه الترجمة هو أن تسجل صورة لألنبي كرجل وما تزال الذاكرة حية واعية وما يزال كثير من عرفوه على قيد الحياة أكثر من أن تصف بالتفصيل أعماله فى الحرب والسلم. ولربما كان اللنبى الآن قريبا منا لدرجة ألا نستطيع تقديره نهائيا كقائد وإدارى ولكن سرعان ما سيغدو بعيداً منا بحيث لا يُستطاع تصويره كرجل.

إنحدر ألنبي من الريف من أرومة إنجليزية عريقة: وكان يمثل تلك الفضائل التى يجب أن يعتبرها الانجليزى أخص صفات جنسه: التسامح والشفقة وحب السلام والنظام وحسن المعاملة. وليس لعائلته تقاليد من الناحية العسكرية، وكان المجد آخر ما يطرأ بباله. لم ينظر إلى العسكرية نظرة المحترف الباحث عن شهرة خاوية بل نظرة المواطن الصالح يحمل السلاح دفاعاً عن السلم والتجارة، لذلك كان يرغب دائماً فى العودة من ضرورة القتال البغيض إلى قريته أو مدينته، إلى بيته وعمله. ولما كان ضابطاً حدثاً أسراً لصديق له بأن أعظم ما يشوقه فى الحياة أن يمتلك حديقة وأن يغرس الأزهار ولكنه وقد اختار حياة الجندي بقى محتفظاً بإحساسه العميق بالواجب وبولائه - وكاناً رائديه طيلة حياته - حتى لقد جعل منه أحياناً رئيساً شديداً على من يعملون تحت إشرافه. لم تكن مطامعه الشخصية كبيرة ولم يسع مطلقاً إلى الترقية ولكن خلقه وكفاءته قد جعلاً من المؤكد أن تسعى إليه الترقية. لم يزعم ألنبي أبداً الزهد فى التمتع باستعمال السلطة ولا فيما تهبه من المزاي والمكانة. كانت تغلب السعة والرجاحة فى تفكيره على العمق فيه

ولم يكن ذا عقل بعيد الخيال مبدع ككارلبرو وكانت عبقريته الحربية أهدأ
وأكثر صلابة كعبقرية ولنجتون، وذلك لب الخلق وحسن التصرف . ولقد
وهب ذاكرة عجيبة الوعى عرف كيف يملأها بحكمة مضيفا معرفته القويمة
بمهنته وكثيراً من معلوماته الدراسية إلى ما اكتسبه فى صباه من المعلومات
الشعبية فى قرينته ، وفى هذه النواحي الثلاث احتفظ ألنبي بثروته الثقافية جديدة
نضرة . كان مدى معلوماته عظيماً فليس من الحكمة أن يحكم على شىء فى حضرته
دون التأكد من الحقائق ، إذ يبدو أنه قد قرأ وفهم وتذكر أكثر ممن أصدر
الحكم فى الموضوع نفسه ، وهو لا يتظاهر بمعلوماته ولا يتكلم لمجرد التأثير
ولكنه ما كان ليترك حكماً خاطئاً أو ناقصاً يصدر أمامه من غير أن يصححه .
كان مجداً كثير القراءة نجد لذة فى التنقل خارج وطنه ، فلم تسنح فرصة لزيارة
بلاد جديدة ولرؤية مناظر لم يرها من قبل إلا واتهزها . لم يكن أحب إليه من
الهدوء وكل ما يوحى بالسلام كالحداثق والطيور والمباني العتيقة ، أما الصيد
فكان هوايته المفضلة .

كل هذا لا يبدو متفقاً تماماً مع اسم « الثور » الذى أطلق عليه واشتهر به
فى الجيش . ومع ذلك فقد كان هذا الإسم يصدق عليه — إلى حد ما — عند
الذين رأوه وعرفوه للبرة الأولى . كما أنه يتفق وبعض أطواره النفسية . كان
حجم جسمه وسلوكه وقوته الجثمانية الظاهرة تؤثر بذاتها ، وطلعت الصريحة
الواضحة بفكه القوى وعينه الثابتين تؤكد قوته وشجاعته . يناسب صوته
وجهه . فهو قوى واضح واثق بنفسه إلى حد العجرفة تقريباً ، والإحساس بقوة
تكوينه ووجهه وصوته كلها عظيمة التأثير فيمن يتصلون به ، أما شخصيته
المسيطرة فكانت الوحي والعماد لمن عرفوه وواجهوه بهدوء وبغير وجل ،

ولكنه من غير شك كان مخيفاً مريباً لمن قابله لأول مرة ولمن اضطربوا في
حضرته وخاصة في عمله الرسمي . كان يسلك مسلك الغلظة والحشونة فأسلته
صريحة حادة يتطلب عنها إجابة مباشرة سريعة . وأى محاولة للتملص أو التعمية
أو حتى التردد قينة أن تفجر غضبه الذي يهز أثبت الناس

ولسنا في حاجة إلى خبرة طويلة لكي نتأكد من أن هذا الاسم الذي
أطلق عليه إنما يصدق فقط على مظهره ، وأن الرجل عظيم العقل والخلق بقدر
ما كان عظيم الجسم ، وأن نظراته إلى الناس — على الرغم من انفجارات
غضبه — إنما هي نظرة العطف والتسامح . فالصفة الخلقية البارزة في
الأنبي هي عظمة في العقل تنافس عظمة في الجسم . كان عاجزاً عن أدنى صغار
أو ضعة نفسية في معاملته للناس أو في المسائل الخلقية ومهما بلغ غضبه من
قوة فما كان يحب الأذى أو ينطوى على الضغينة ، وعلى الرغم من ثقته الشديدة
بنفسه لم يكن عنيداً بل كان على استعداد دائم أن يسمع آراء المختصين ويتقبل
نصحتهم لو رآه سديداً . وإذا بت في أمر لم يطلب من أحد تحمل المسؤولية
معه فإن سارت الأمور سيراً حسناً لم يبخل بالاعتراف بخدمات مرءوسيه
وإن ساءت الأمور اقتصد في إبداء اللوم فما نزل أبدأ إلى الدرك الذي يتهرب
فيه من المسؤولية ولا إلى درجة الدفاع عن نفسه

كان دائماً مهيباً مهذباً مع النساء وكلهن يحببته ، رحيماً لطيفاً مع الأطفال
وكلهم يعزه ، وكان متحفظاً مع الرجال حتى مع أولئك الذين يعرفونه خير
المعرفة . ولقد ظل — إلا في أحوال نادرة — متباعداً مترفعاً لا يسأل الناس
سراً ولا يبوح لهم بسرهم . كان عظيم الثقة بنفسه حتى يكاد ألا يعترف بوجود
الريب في نفوس من هم دونه ، وطريقه في الحياة بسيط مستقيم غير ملتوفلا

الرهبة ولا الرغبة بجماعتيه يحمده عنه . وكان الهدوء والسلام غايته التي يهدف إليها ، سلام الريف الإنجليزي الذي خرج منه .
تلك هي الخطوط الأساسية التي ستحاول الصفحات التالية أن تكون
لأللبي صورة منها ، صورة جندي عظيم وشريف شجاع يمثل مبدأ أسرته :
« الإخلاص والجد » : العقيدة ، التي عاش بها ومات عليها .

أللبي الجنرال

خدم أللبي بلاده ثماني سنوات شاقة أخريات ، وظل فيلد مارشال في الخدمة حتى نهاية عمره ولكن انتهى في الواقع تاريخ حياته كقائد للجنود ساعة عقد الهدنة مع تركيا . ويبدو أن هنا المكان اللائق لمحاولة تقديره كقائد ولتحديد مكانه بين العظماء من رجال الجندية البريطانيين . لم يطلب هو لنفسه مثل ذلك المكان بينهم ، لا لشعوره بالتواضع بل لأنه لا يعتقد بجدوى الوقت الذي يضيع في مناقشة مزاياه أو نقائصه . لقد أدى ما طلب منه على خير ما يستطيع وتلك هي النتائج - حسنة وسيئة - أمام العالم فليرها ويحكم .
لقد كان أللبي رجلاً ناجحاً . وسواء أعادت انتصاراته إلى الحظ أو إلى عمل رجاله أو إلى مزايا القتال في جنوده أو إلى ضعف عدوه أو إلى مهارته الشخصية فليختر كل ما يعجبه . أما هو فلن يفعل شيئاً لا بلسانه ولا بقلبه ليغير من ذلك الحكم شيئاً اللهم إلا أن يكافئ بسخاء من عاونوه . إن العمل التالي هو كل ما يعنيه هو ، لامناقشة الماضي . ولو كان أللبي من لاعبي البريد لما سمح بأى بحث في سبب الهزيمة Post-mortems وإنما يكتفي بتسجيل المكسب أو الخسارة مع كلمة مديح أو تعزية لشريكه جاعلاً همه في اللعبة

التالية . ومن رأيه أنه إذا فرغ المرء من عمله فلينفق إذن سنيه الأخيرة في دراسة الطيور الحية والوحوش والزهور وفي زيارة نواح جديدة من العالم فذلك بالتأكيد أجدى من مناقشة حوادث قديمة ميتة تستعصى على الذاكرة سواء أكان ذلك بالخير أم بالشر . «إذا حزمت أمرك فلا تعاوده» تلك كانت إحدى الحكم المفضلة لدى النبي ، وقليل من له القوة التي يطبق بها تلك الحكمة تطبيقاً كاملاً مثله .

إن قليلاً من الجنرالات عامة — وبالتأكد قليلاً من المحدثين منهم — من كان له من التجربة ما كان لألنبي كقائد في الميدان وفي أماكن التدريب ففي الخدمة العاملة قاد فصيلاً في زولولاند وبتشوانالاند وكتيبة وفرقة في حرب جنوب إفريقية ثم فيلقاً وجيشاً وأخيراً قاد حملة مستقلة في الحرب العظمى . وفي السلم قاد ودرّب فرقة وآلايا ولواء . وذلك لعدة سنوات في كل قسم من الأقسام السابقة . ودرس إلى التجارب العملية نظريات مهنته دراسة جدية ونجح في كلية أركان الحرب وعين مدرسا بها فكان عظيم الكفاءة . ومن الصعب على أي ناقد أن يعثر على نقص في استعداده الفنى للقيادة .

ومع ذلك فلم يكن ضيق الأفق العقلي كالمختصين بل كان مدى هواياته غير عادى كمعلوماته خارج مهنته وكل ما كان يعرفه حربياً ومدنياً — فانما يعرفه حق المعرفة فلم تك معلوماته سطحية كأى محدث خاو أو ضابط مدع يفهمه الناس على حقيقتة كذلك اتسع نطاق رجالاته واستعمل عينية وأذنيه ولسانه بدراية وفهم .

إن الخلق في كل المهن — وخاصة الحربى منها — أعظم قيمة من العقل أو التجربة ويمكن القول بكل تأكيد بأن خلق النبي واف بأنسب ما تتطلبه

المهنة الحربية القاسية من شروط ، فشجاعته الجسمية والعقلية عظيمة كاملة حتى ليحسبها أمراً عادياً لا يحس وجوده . يتصرف بسرعة وثبات ساعة الخطر لا لأن الخطر يحفزها ولكن لأن هناك عملاً يجب أن يتم للحظته . أما ولاؤه لرؤسائه فتدل أعماله عليه فما نبس بكلمة نقد لأوامرهم أو لقراراتهم . ذلك إلى صفة أخرى ربما ندر وجودها هي ثقته بمرؤسيه . فالشجاعة والثقة والاستقامة كلها كانت خصائصه وهي بالتأكيـد الصفات الأساسية الواجبة لمن وضع بين يديه خير وشرف أناس كثيرين .

فما الذي كان ينقص النبي إذن حتى اعترف البعض بعظمته على مريض ؟ وحتى كانت شخصيته غير مقربة إلى الجماهير فترة طويلة من حياته العسكرية ؟ كان ينقصه قدر من ضبط النفس وقليل من التعاطف والقوة التي تثير الحماس وتلهم الأتباع . ولئن أساءت إلى سمعته أبلغ الإساءة انفجارات غضبه الفجائية وما كان يبدية أحياناً من عدم ضبط النفس حتى ليكاد أن يشبه في ذلك الأطفال سيما وإنه لم يعن أبداً بإصلاح ما كانت تحدثه من أثر (فلن يعرف قلة ما تدل عليه تلك الصفات من طبيعة الرجل الحقيقية إلا من عاشوا بالقرب منه وشاهدوه في كل يوم) فلم يفهم النبي مطلقاً أن العواطف لا العقل هي التي تقود الناس وتلك الوحشة التي كانت تشمله والإيحاء بالسيادة العقلية فيه هي التي أبعده عن قلوب ضباطه وجنوده . ربما كان ذلك عن عمد منه لأن أي تظاهر بالحب كان خليقاً أن يضايقه كل المضايقة . كان ينقصه دافع الطموح بينما كان الواجب دافعه الأول . والواجب أقل حفزاً للعمل من الطموح في سبيل نهج في الحياة أو من الحماس لقضية من القضايا

ولما أصبح جنرالاً في القيادة العليا كانت المفاجأة وسرعة الحركة سلاحه الرئيسيين لهزيمة أعدائه . يضاف إلى ذلك قوة في متابعتهم بغير هوادة . وتلك

هي الدروس التي سيلاحظها دارسو حملاته، وربما لاحظوا إلى جانب ذلك ميله إلى انتهاز الفرص ولو أنه كان يبذل قصاراه للتقليل منها. فلم يكن النبي مقامراً لا يبالي بل كان يحصى الاحتمالات بعناية حتى إذا رآها في جانبه ورأى النصر راجحاً أقبل على المخاطر بغبطة إذ لم يؤمن النبي أبداً بالمبدأ الحديث القائل «بالسلامة قبل كل شيء» ذلك المبدأ الذي غالباً ما يكون علامة انحطاط الأعمال والحكومات والجيوش والأمم.

ولا ترجع مهارته في وضع الخطط وخذع العدو إلى ومضات الإلهام الخاطفة وإنما ترجع إلى قراءة كثيرة ودراسة للمعارك الماضية وللظروف الحاضرة ولا يتحرك عقله بسرعة - إلا عند العمل - بيد أنه يسير بثبات. وله صفة أخرى أقل ظهوراً وإن كانت الأساس الحقيقي لانتصاراته تلك هي عنايته بالإدارة وهذا ما أوضحناه بالكتاب. ليست الإدارة صفة براقة ومع ذلك فهي جديرة بأن تلقى قليلاً من العناية عند تدوين التواريخ الحربية. صاحبت إحدى الشخصيات في قصة من قصص سكوت «أين قرأت أن سبر تريسترام وزن القش والقمح؟ أو أن سير لانسلوت وزع كتل الخشب أو أن أي فارس من فرسان المائة المستديرة تنازل فساوم في ثمن حزمة من القش؟» ولكن لو لم يعن هؤلاء الفرسان حقاً بتفاصيل شئونهم الداخلية لبامت مشروعاتهم بالفشل. وحقاً لم يرتكب النبي مثل ذلك الخطأ. نعم لم يتدخل مطلقاً في التفاصيل لكنه مع ذلك كان يصر على أن يطمن من حيث إتمام كل استعداد ممكن لتوفير الغذاء والذخيرة والاحتياطي ولضمان صحة جنوده وللعناية بالمرضى والجرحى إلا إذا كان يتعقب عدواً، فعندئذ لا يحفل بتحذيرات ضباط التموين بل يدعو جنوده ليحيوا الحياة الشاقة وليقاتلوا في

عنف وبذلك لا يدع للعدو فرصة الرجوع إلى القتال مرة أخرى .

كان أثره الشخصي في طريقة قيادته أكثر ظهوراً عنده منه عند قادة الجيوش العظمى أى الجيوش الحديثة . فاذا وثق بضباطه أمضى أقل وقت ممكن في المكتب وأكثر وقت مستطاع بين جيشه لجمع جنود المقدمة لحسب بل في زيارة القواعد والمستشفيات والمصانع ومعسكرات التدريب أيضاً وكذلك كل المؤسسات التي يحيا بها الجيش ويتحرك ويقوم عليها . وكانت تعينه على ذلك بنيته ومظهره فله قدرة على احتمال الرحلات الطويلة في الطرق المتربة المزدهمة وفي أشد الأوقات حرارة كل ذلك دون أن يظهر عليه أقل أثر للاعياء حتى تركت له قوة احتماله هذه في نفوس جنوده أثراً لا يمحى ومن هنا لم يتطرق الشك لمن رآه من أولئك الجنود — وكلهم رآه — في أن له قائداً حقاً أو في أن العمليات الحربية إن فشلت فسيعود فشلها إلى عجز في القيادة أو ضعف في قوة تصميمها .

وآراؤه في الطاعة بسيطة : فالأمر هو الأمر والنظام هو النظام . طاعة دون سؤال ، في كل الأوقات وفي جميع الظروف . وتشده في بعض الأوامر كضرورة إبقاء سيور الخوذ تحت الذقن وارتداء الخوذات الحديدية وبعض المحظورات كركوب الخيل بأردية قصيرة أو ربطها إلى جذوع الأشجار قد خلق كثيراً من القصص التي تروى عنه وترك وراه في عقول البعض صورة المستبد الأحمق يجد لذة في تفاصيل تافهة عن الثياب والنظام . لم يكن ذلك حقاً فالأوامر التي أصر عليها كان لها من الأسباب ما يبررها في حين أنه كان يخفف ويلغى كثيراً من التقييدات التي ظهر له عدم ضرورتها . إنه ما اهتم مطلقاً بسفاسف الملابس أو العادات . ولكنه لم يسمح قط بالتغاضي عن مخالفة

الأوامر أو التساهل بحجة الظروف . ومن هنا كان تأنيبه لعدد من الجنود المهوكين - وكانوا قاتلوا مدى ساعات - لأن سيور خوذهم مرفوعة ، ومنعه الأردنية القصيرة حتى في وادي الأردن الشديد الحرارة وهياجه حين رأى جثة جندي في الخنادق وعلى رأسه قبعة عادية بدل الخوذة الحديدية .

ولقد أغفل ناقدوه أو هم لم يدركوا أن أللبي نادراً ما كان يعاقب إلا بلسانه ومع ذلك فعندما كان رئيساً على إحدى الكتائب اعتقد بعض ضباطه أنه كان متساعماً أكثر مما يجب ولما تولى القيادة العليا كان يراجع أحكام المجالس العسكرية أو المسائل الأخرى المتعلقة بالنظام ويجهد نفسه في تفهم أى حالة تعرض عليه جانحاً إلى الرحمة ماوسعه ذلك .

وحقا قد غلبت الفظاظه على ألفاظه وعلى معاملته للضباط حتى الكبار منهم بل وفي بعض الأحيان على مرأى ممن هم أقل منهم رتبة . وكان ذلك مبغضاً من الكثيرين ولكن كان الواجب عند أللبي فوق كل شيء أما المشاعر الشخصية - مشاعره هو أو مشاعر أى شخص آخر فتأتى بعد ذلك بكثير ولقد قال مرة لأحد ضباطه : « أنا لا يهمنى أن أكون مهذباً أو غير مهذب مع أى إنسان مادمت اعتقد أنه لا يؤدى واجبه » . ورغم ذلك فقد كان - في نفس الوقت - يعطى الفرصة لكل شخص فإن بذل غاية جهده فنادراً ما ينقله من مركزه حتى لو كان هذا الجهد على غير مايرام ، إذ يفضل أن يخدمه رجل نزيه متوسط الكفاية يستطيع أن يثق به ولا يخدمه رجل أكثر كفاءة ولكن لا يضمن أمانته وولائه

كان أللبي يجب انتقاء ألفاظه حتى ليظن أحياناً متحذلقاً في استعماله للإنجليزية . وأسلوبه الرسمي والعادى بسيط صارم ، جميل واضح ، من لغة

موطنه ، خال من الصفات والأحوال التي لا موجب لها ، وخال كذلك من الكلمات الدخيلة والمبتذلة . ومتى عرف شخص أسلوبه سهل عليه تسويد أى وثيقة له ، ولكن كم لقي منه الضباط الجديدون عليه ما يؤلمهم لكثرة ما يحذفه مما كتبوه له للمرة الأولى . فكلمة حديثة مثل « dump » (ومعناها مخزن مؤن في العراق) كان يستبعد بها بتقريع مر من أى وثيقة رسمية تقدم له . ولو قد سمعها لتصنع عدم فهمها

حدث عقب موقعة بيرشيه والاستيلاء على غزة أن أحس المكتتب الحربى بأن تقرير النبي المختصر عن انتصاراته لن يروى ظمناً للجمهور للاخبار فأبرق بطلب زيادة فى المعلومات وأدرك ضابط من قلم المخابرات ما كان مطلوباً فكتب برقية مطولة أقرب إلى أسلوب مراسل حربى واسع الخيال ظفر بصيد لم يظفر به سواه . فلما عرضت على النبي انفجر غضباً لمحاولة إرسال مثل هذا التقرير المزوق الجدير بمراسل صحيفة - باسمه . وبعد أن هدم النبي بنقده المؤلف المسكين أملى هو تقريراً آخر رزينا عن العمليات الحربية لا تكاد توجد به صفة واحدة وبالتأكيد لم يكن فيه ما يشبع رغبة الجمهور للتفاصيل الوصفية البراقة .

فإذا كان ما سردناه ملخصاً صادقاً لصفات النبي الحربية وأخلاقه فما أثر ذلك كله فى الحرب العظمى ؟ لقد عجب البعض أن يصبح ذلك الخائب بفرنسا هو المنتصر فى فلسطين . وعللوا ذلك إما بأن ظروف الحرب هنا أصبحت أيسر وإما بأن القيادة المستقلة كانت تلائم النبي أكثر . إن ذلك لشبيه بانتقال لاعب كرة فى إحدى المباريات من قلب الهجوم إلى مركز الجناح ثم إظهاره بعد ذلك لمهارة لم تكن فى الحسبان وإصابته الهدف إصابات عديدة رائعة .

ولكن لا بد وان كان هذا اللاعب نفسه في الحالين ماهراً قديراً إذ أن مجرد عبور البحر المتوسط لا يكفي لتحويل ألنبي من قائد خائب إلى قائد عظيم فلا مفر إذن من أن يحتاج فشله المزعوم بذلك الميدان الحرج الملىء بالأوحوال في فرنسا إلى المزيد من الدراسة . وحقاً إن ما قام به ألنبي في ذلك الميدان ليعادل - على الأقل - ما قام به أى قائد بريطانى غيره . فلقد احتفظ ألنبي بثباته في فوضى الانسحاب من مونز « Mons » وفي الاندفاع المفاجيء نحو الأين « Aisns » كأمى قائد آخر إن لم يكن أثبت من بعضهم . ربما لم يقم فيلق الفرسان بعمل ظاهر للعيان لكنه هو الذى غطى جناحى الجيش واضطر بذلك العدو إلى الاحتفاظ بقوة عظيمة من فرسانه خارج المعركة أما في معركة أيبير Ypres الأولى فقد قام سلاح الفرسان بقيادة ألنبي بعمل عظيم من أعمال الدفاع لانظير له في التاريخ وذلك باشتباكه مع قوة هائلة من مشاة العدو ويرجع الفضل الأول في ذلك - من غير شك - إلى ثبات القائد والمثل الذى ضربه بنفسه وإلى إرادته الحديدية .

ولقد انتقدت كثيراً قيادته التالية أى قيادته للجيش الخامس . فقيل إنه أضعاف حياة عدد من جنوده بقيامه بهجمات أو بهجمات مضادة في ظروف يعتبر النجاح فيها صعباً أو مستحيلاً . ولكن تجب ملاحظة أن ألنبي إنما تولى قياده هذا الجيش في أزمة موقعة أيبير الثانية عندما كان القتال محتدماً وبعض الأراضى قد فقد فعلاً وحين بدا من المشكوك فيه الاحتفاظ بإيبير نفسها وبذلك لم تتح له حينئذ معرفة طبيعة الأرض أو صفة الجنود قبل القيام بمقاومة الهجمات المضادة العنيفة المتجددة . وذلك بينما قد أمر بالاحتفاظ بمواقعه بأى ثمن . ولقد نجح في ذلك نجح من غير أن يفقد الجيش إلا قليلاً

من الاراضى وفي أدوار المعركة النهائية . ففي مثل تلك الظروف كان لا يسع
النبى أن يأتى غير ما آتاه . بل ربما أنقذ اللبى بتصميمه ذلك مدينة أير
نفسها . ولكن لسوء الحظ صورّه مساهمة الخشن فى صورة قائد فظ عنيد
لا هم له سوى الهجوم إلى الأمام من غير مبالاة .

أما قيادته للجيش الثالث فقد دلت على أنه لم يكن عديم الاهتمام بأرواح
الجنود . ففي الأحوال العادية كانت نسبة خسائره فى المحافظة على الخطوط
أقل كثيراً منها فى الجيوش الأخرى وربما رجع بعض ذلك إلى جودة خنادقه
وإلى أن اللبى كان يقلل جداً من الهجوم على الخنادق ذلك الهجوم الذى
يسبب الخسائر من غير مبرر ويؤدى لأعمال انتقامية فادحة . وهنا أيضاً كانت
خشونته وانفجارات غضبه المقياس الذى يحكم به الجيش عليه . ففي معركة
آراس « Arras » كان المجد الذى ظفر به أقل من المجد الذى يستحقه . إن يوم
٩ أبريل سنة ١٩١٧ هو أجد أيام قتال القوى البريطانية بفرنسا فى مدى
عامين ونصف وإن كان ما أعقبه من بقاء التقدم وفداحة الخسائر قد قلل من
قيمة ذلك النجاح . وحتى فى هذه الهجمات الأخيرة كانت الخطة من وضع القيادة
العليا . وفى الوقت الذى لم تستبدل فيه أبداً جنود الجيش الثالث المنهوكه
بقوى جديدة كما حدث فى المعارك العظمى فى السوم أو فى باسشندال .

أما الهجوم النهائى الكبير فى معركة آراس Arras وهو الذى تمت خيبته
تقريباً — فقد أمر ببدئه فى الظلام وفقاً لآراء قائد جيش آخر وعلى الرغم
من احتجاج اللبى المتكرر .

وبينما استفاضت شهرة اللبى بين ضباط فيلقه وجنوده بأنه رجل غضوب
كثير الضجيج إذا به فى نظر ضباط أركان الحرب صموتاً إلى حد ما ، عديم

التأثير في الاجتماعات الدورية لقادة الجيش فلم يظهر فيها بالمظهر الذي أوجبه مزاياه . لم يكن يحب النقاش فعقله كالبارجة . قوى راجح يتطلب الفراغ والزمن للمناورة والعمل . ولم يكن قط على وفاق مع هييج بل كمان كل منهما أميل إلى الصمت في حضرة الآخر .

وهكذا — بخلاف الأنبياء — كان التقدير الذي ظفر به النبي في فرنسا قليلا ، أما في محيطه هو الخاص — محيط الذين عملوا بالقرب منه — فقد اعترفوا جميعاً له بكفائاته وصدق خلقه ، ولو أن اعترافهم هذا لم يكن ليضعف من الرأي العام للجيش فيه إلا بمقدار ما يغير مقال في مجلة شهرية متزنه من رأى كونه الجمهور من الجرائد اليومية المنتشرة . لقد كانت لالنبي بفرنسا « صحافة » سيئة وبذلك تأثرت شهرته ولو درس سجل أعماله الحقيقي لدعى ذلك إلى مقارنته بما قام به أى من معاصريه .

وما بنا من حاجة إلى استعادة انتصاراته بفلسطين فالأسلوب الذى تمت به يجعله بحق أعظم قائد بريطانى فى الحرب العظمى . فمن حيث العبقرية الوقادة فاق هو هييج ذو العقل المتزن وإن كان فى مثل عزمته وشجاعته ، وفاق « پلر » فى قوة التوجيه ولو أنه أقل منه تعاطفاً . وكان أقوى من « رولنسون » وإن كان فى مثل مهارته ، وهو أوسع أفقا من « مود » وأكثر تجربة فى القيادة من « روبرتسون » وأعظم ثباتا من « هنرى » القلب . لقد كان من طراز « ولنجتون » الذى يشاركه فى كثير من النواحي ، فى واقعته الصائبة وميله الطبيعى لاختفاء نواياه وفى مفاجأة عدوه وتقديره لقيمة الإدارة بل وفى نقص التعاطف لديه .

فهل لنا أن نضع النبي بين الطبقة الأولى من القواد البريطانيين ؟ تلك

الصفوة القليلة وعلى رأسها « مارلبرو » هذا الذي تدعو عبقريته إلى مقارنتها
بعبقرية نابليون أو عبقرية أى قائد عالمى عظيم . إن من يفوقه بالتأكيد قليل .
نعم ربما كانت تعوزه بعض حمية « كرومويل » وحيويته المبدعة ، أو ينقصه
تطبيق « ولنجتون » الهادى وحيوية « ولف » النارية كما قد ينقصه عطف
« مور » الحار ومقدرة « كتشنر » المنظمة . ولكن لم ير الجيش البريطانى
سوى قلة من القواد كانوا أحسن عدة فى العقل والجسم لمحنة الحرب ، وأقل
استعداداً لفقد شجاعتهم فى أحلك الساعات وأكثر قسوة فى استعجال
الفائده وإتمام النصر . وبالتأكيد لم ير الجيش البريطانى من هو أعظم منه
إحساساً بالولاء والواجب ، أو أكثر منه صدقا واستقامة طبع ، وهذه هى
ميزات الفطرة العظيمة الكريمة .

مخلفات الحرب . آثار الحرب

سوريا وفلسطين

من نوفمبر ١٩١٨ إلى يونيه ١٩٢٠

وَقَّعت الهدنة مع تركيا في ٣١ أكتوبر سنة ١٩١٨ فأصبح اللبني بعدها سيد فلسطين وسوريا . ولقد حطمت حملته الخاطفة — التي اندفعت بجيوشه من قرب يافا إلى شمال حلب أي مسافة ٢٥٠ ميلا في أقل من ستة أسابيع — قوات العدو المواجهة له تحطيا تماما، حتى ظن أنه قاض بذلك على كل الصعوبات الحربية في الشرق الأوسط . ولكن الحرب تخلق الجديد من المشاكل بقدر ما تحل القديم منها .

ففي أواخر سنة ١٩١٨ وأوائل سنة ١٩١٩ رأى اللبني أن انتصاره التام قد أنبت له بذور خلافات كانت تحجبها ضرورات الحرب وكانت هذه خلافات سياسية أكثر مما كانت حربية . وأصبح بذلك عليه — باعتباره القائد العام — أن يجد لها — على الأقل — حلا مؤقتاً إلى أن يوضع مؤتمر السلام قراراته . فبات عليه تنظيم الإدارة في سوريا كلها وفيها الفرنسيون والعرب يؤيد كل منهما مطالبه بحماس وعنف ؛ وفي منطقة شمال حلب رفض الجنرالات الأتراك بقواتهم الكبيرة المسلحة — الخضوع لشروط الهدنة ؛ بينما كان السكان من الأرمن يستصرخون للحماية، كما أثارَت مسائل ومواعيد تسريح الجيوش قلق الجنود المنهوكين وكان من المحتمل أن يصبح ذلك مصدر عناء إن لم يعالج بعناية ؛ ثم كانت هناك مشكلة التخلص من عدد

هائل من أسرى الترك إلى معالجة اللاجئين الأرمن والتصرف في كميات كبيرة من الحيوانات ومخزونات أخرى مختلفة ، كل ذلك فوق الإدارة اليومية لعدد كبير من الجنود موزعين في منطقة صعبة المواصلات يبلغ طولها بضع مئات من الأميال ويتراوح عرضها بين خمسين ومائة ميل .

في بادئ الأمر كانت المصاعب في الجبهة فقط ، في الأماكن الحديثة الغزو بينما قامت الإدارة اليومية في فلسطين خلف الجبهة بعمل باهر ، حتى ذلك الحين لم يكن قد اتضح بعد ما ينذر بالتناج التي ستمرتب على وعد « بلفور » أو ما ينذر بالنزاع بين العرب واليهود ذلك النزاع الذي سبب كل هذا العناء والحيرة في البلاد المقدسة . أما بعيداً في مصر فقد بدا هناك كل شيء على مايرام حيث ظل المصريون هادئين يظهر عليهم الرضا طول الحرب لما جلبته لهم من أرباح وافرة إذا لم يكن يقدر أحد قوة العداة الذي أثارته شكاوى حقة كانت تضطرم في نفوس المصريين — المتعلمين منهم والفلاحين — وكانت خليقة أن تنفجر بمثل تلك المفاجأة والوحشية .

وأول ما شغل النبي كان تنظيم سوريا وفلسطين المحتلة وقد وضع أسس ذلك قبيل عقد الهدنة مع تركيا وأصبحت كل فلسطين تسمى « أراضي العدو المحتلة الجنوبية » وتولى قيادتها الماجور جنرال « سير آرثر موني » وكان بالفعل يدير ذلك الجانب من فلسطين الذي احتل قبل الهجوم النهائي . أما الجزء الساحلي من سوريا ما بين اسكندرونة وعكا بما فيه بيروت ولبنان فقد وضع تحت الإدارة الفرنسية وأطلق عليه أولاً « إدارة أراضي العدو المحتلة الشمالية » ثم فيما بعد « الغربية » أما « إدارة أراضي العدو المحتلة الشرقية » والتي يديرها العرب فقد كانت منطقة فسيحة غير محدودة إلى حد ما تمتد من حلب

إلى دمشق شرق المنطقة الفرنسية ومن هناك تتجه جنوباً حتى تشمل حوران
والبلاد المعروفة الآن بشرق الأردن. وفيما بعد عند ما احتلت سيليسيا Cilicia
في ديسمبر سنة ١٩١٨ تألفت منطقة جديدة أطلق عليها «إدارة أراضى العدو
المحتلة الشمالية» وتولى إدارتها أحد الفرنسيين ثم غير بعد ذلك اسم «إدارة
أراضى العدو المحتلة الشمالية» «بإدارة أراضى العدو المحتلة الغربية» ووضعت
جميع هذه الإدارات الأربع تحت سلطة ألنبي المباشرة وأصبح هو قائدها
الأعلى ومن ثم أخذت ترسل مشاكل النقد والمالية والأشغال العامة والبوليس
والقضاء واللاجئين وإنقاذ الفقراء وما إلى ذلك بلغات ثلاث إلى قيادته العليا
للتصرف، كل ذلك فى الوقت الذى رفض فيه الجنرال المختص بالتكوين —
وكان اسكتلندياً حذراً — أن يسمح لضباطه أو لمستشاره المالى بأى نوع من
أنواع التدخل لتسيير دفة الأمور فى إدارة أراضى العدو المحتلة وبذلك غرق
ضباط القيادة العليا وهم يقتحمون فيما خشى الضباط المساعدون أن يطأوا
بأقدامهم فيه من المشاكل المالية والقانونية والإدارية المعقدة. أما فيما وراء
إدارات أراضى العدو المحتلة فقد كانت الإدارة عسكرية محضة وتحت إمرة
قائد فيلق الفرسان الصحراوى الجنرال سير «هارى شوفل» الذى استخدم
الموظفين الأتراك فى منطقة شمال خط بغداد الحديدى تلك التى تشمل مدن
ماراش وعنتاب Aintab وأورفا Urfa وقد أحتلت فى آخر سنة ١٩١٨ منعاً
للجيوش التركية المنسحبة من تدييح الأرمن

ولقد طفق ألنبي كعادته يذرع المنطقة التى يديرها ويحل المشاكل فى موضعها
على قدر ما كان يستطيع، وامتدت مسؤولياته من قاعدته فى مصر — وكانت
لا تزال تحت الأحكام العرفية — فعبرت سيناء — معتمداً على الخط الحديدى

الحربي في مواسلاته - لتشمل كل فلسطين وشرق الأردن وسوريا ثم انتهت إلى أما كن تبعد عن حلب بأكثر من مائة ميل إلى الشمال والشرق. وامتدت في سيليسيا حتى جبال طوروس في الشمال الغربي حيث جعل من حيفا على جبل الكرمل مركزاً لقيادته يوم ذاك .

ولكن سرعان ما قامت مشاكل دقيقة تستدعي منه الحل السريع . وكان أهمها رفض بعض الجنرالات الأتراك - وأشهرهم على إحسان باشا قائد القوة المنسحبة من جبهة أراضي الجزيرة - تسريح جيوشهم تمشياً مع شروط الهدنة . ولما كان مناهم صعباً لم يرغب النبي في الزج بنفسه أكثر من ذلك داخل أراضي تركيا ولذلك عول على استعمال الضغط على الحكومة التركية .

وما أهل فبراير سنة ١٩١٩ حتى كان النبي على طهر البارجة تمرير مسافراً من حيفا إلى القسطنطينية وكانت يحتلها الحلفاء إذ ذاك ، وهناك اجتمع بوزيري الحربية والخارجية التركيين . أما هذا الاجتماع فقد أظهر شخصية النبي في أقصى سطوتها إذ أتى الوزيران التركيان وهما متأهبان للمناقشة والمحااجة فلم يكن من النبي إلا أن اكتفى بمجرد قراءة مطالبه المتضمنة عزل على إحسان ثم سلهما صورة منها مصمما في الوقت نفسه على ضرورة الموافقة فوراً دون مناقشة أو محاجه وأدهش ذلك الوزيرين التركيين غاية الدهشة حتى أسرعوا بإعطاء الوعد باجابة تلك المطالب ، ولقد بلغ من تأثرهما الشديد بإصرار النبي ان عجلوا بالتنفيذ فأبعد في الحال على إحسان من قيادته وتوقفت بذلك المعارضة تماماً . وهكذا بقى النبي في القسطنطينية ٣٦ ساعة ، وأنجز غرضه في ٥ دقائق بمجرد أن أبدى تصميمه الذي لا يثنى .

وكانت سوريا المشكلة التالية . ففي بداية سنة ١٩١٩ أخذ الاحتكاك بين

الفرنسيين والعرب يزداد وبلغ الغضب بالفرنسيين مداه لما اعتبروه تشجيعاً إنجليزياً للقضية العربية ومع أن طلب الفرنسيين للسيادة على سوريا كان يعتمد على العاطفة والتقاليد أكثر من اعتماده على أي حق من الحقوق أو حتى على المصالح الخاصة فإن ذلك لم يمنع من اعتراف الحكومة الانجليزية بالسيادة الفرنسية في اتفاق Sykes-Picot المشؤوم . ومع ذلك فقد اشتكى الفرنسيون من أن الضياط البريطانيين يؤيدون صراحة مطالب العرب في إدارة سوريا كلها وزادوا فاتهموا النبي نفسه بالتحيز وإن يكن موقفه هو كان كما كتب لأحد أصدقائه في ذلك الوقت « على عمل الكثير من الأمور وأمامي الكثير منها للتفكير فيه . إن كل الأمم وكل الراغبين في أن يصبحوا أمماً وجميع أنواع الديانات والمذاهب السياسية كل أولئك قائم الواحد منها في وجه الآخر ، وكل منها يحاول أن يجذبني إلى جانبه ، ولكني ما زلت محتفظاً بغايتي ، وأعرف أن عليّ أن أسير بحذر . »

ولما ذهب فيصل إلى أوروبا ليدافع عن القضية العربية استُدعى النبي ، في أوائل مارس سنة ١٩١٩ ليحضر مؤتمر السلام ، وليدلى بآرائه في المسألة السورية . وتحدث في اجتماع عقد بباريس في ٢٠ مارس ١٩١٩ ، فقال : إنه لو فرضت فرنسا حكمها على سوريا بغير رغبة أهلها ، فستقوم الاضطرابات بين الفرنسيين والعرب . بل ربما قد تقع الحرب بينهما ثم إذا بالنبي يستلم — في اليوم التالي — من الوزارة تعليمات بالعودة إلى مصر ليقوم بمنصب المعتمد هناك ، وليعيد النظام ، ذلك ولم يكده يمضي على وجوده بباريس أكثر من ستة وثلاثين ساعة .

وقبل أن نلم بأسباب هذا التعيين المفاجيء يحمل بنا ذكر أهم الحوادث

التي وقعت في سوريا بعد ذلك ، فعلى الرغم من أن النبي قد استمر مسؤولاً عن إدارة سوريا العسكرية مدة السبعة أو الثمانية الأشهر التالية إلا أن مصر كانت حينئذ شاغله الأول ، لقد قرر مؤتمر السلام — الذي استُدعى منه النبي بمثل تلك السرعة — تأجيل الحل العسير بتعيين لجنة من مندوبي أمريكا وإنجلترا وفرنسا لتزور سوريا ، وتحقق بنفسها من مطالب السوريين ، ولو قد تم ذلك لكان متفقاً مع الوعد الذي سبق لألنبي أن أعطاه لهم باسم الحكومتين الإنجليزية والفرنسية في ٧ نوفمبر سنة ١٩١٨ بعيد عقد الهدنة مع تركيا ، وقال فيه : إن غرض الحلفاء هو أن يقيموا حكومات وطنية يختارها الأهالي بمحض إرادتهم . وأنبأ البريطانيون سير « هنرى ما كاهون » و « ج . هوجارت » ، وكلاهما معروف تماماً بنزاهته وحسن سمعته وثقافته ، وأنبأ الأمريكيون « شارل كرين » ودكتور « ه . ك . كنج » أما الفرنسيون فلما أدركوا كره الشعب لهم في روسيا رفضوا مشروع ذلك التحقيق ، وامتنعوا عن تعيين أى مندوب لهم على الإطلاق ، مفضلين بلوغ غاياتهم باستعمال الضغط السياسى فى باريس ، وأدرك البريطانيون الإدراك كله أن الفرنسيين سيرفضون الموافقة على آراء لجنة لم يمثلهم فيها أحد ، ولكنهم مع ذلك لم يجدوا وسيلة ما يقنعون بها الفرنسيين لتعيين مندوبيهم . وعلى هذا فقد ذهب الأمريكيون — وحدهم — إلى سوريا ، وأظهر بعد ذلك تقريرهم أن السوريين سيرحبون بانتداب أمريكي ، وسيرضون عن انتداب انجليزى ، لكنهم سيرفضون الانتداب الفرنسى ، كما بين أنه يجب معاملة سوريا وفلسطين باعتبارهما وحدة لا تنفصل كما كانا أيام الحكم التركى . إلا أنه قبل عودة المندوبين الأمريكيين — وفي الواقع قبيل مغادرتهم سوريا — استطاعت

الدبلوماسية الفرنسية — وكانت تعمل بين مساومات المؤتمر الملتوية — أن
تصل إلى أغراضها في سوريا ، فلكي يحتفظ البريطانيون بالعراق وفلسطين
اضطر رئيس الوزارة البريطانية إلى الموافقة على وضع سوريا تحت الانتداب
الفرنسي ؛ وهكذا لم يتح للتقرير الأمريكي حتى مجرد الظهور .

وعلى الرغم من أن الانتداب لم يكن قد قرر بعد ، ومن أن مؤتمر السلام
لم يكن قد انتهى إلى شيء فقد ظفر الفرنسيون من الحكومة الانجليزية — وكان
يزداد فزعها حينئذ من جراء تكاليف جيوش الاحتلال الباهظة — بالموافقة
على أن يحل الفرنسيون محل الانجليز في سوريا خلال خريف سنة ١٩١٩
وفعلا تم سحب الجيوش الانجليزية واستبدلت بوحدات فرنسية في نوفمبر
وكادت تنشب بسبب ذلك الحرب بين العرب والفرنسيين بين دمشق وبيروت
لولا أن حال دون ذلك نفوذ النبي وحده فقد اتفق أن كان وقتئذ بصحبة القائد
الفرنسي الجنرال جورو فأرسل النبي أحد ضباط القيادة ليقف بين القوتين
وليثني العرب عن هجومهم . وكان ذلك آخر عمل له في سوريا تأجل به النزاع
حتى يوليه سنة ١٩٢٠ حين تجددت الأعمال العدائية نتيجة لإعلان شروط
الانتداب فرنسي على سوريا . واحتل الفرنسيون دمشق بعد معركة قصيرة
وغادر فيصل البلاد وكما هو معروف عوض الانجليز فيما بعد حلفاءهم العرب
بما كان في مقدورهم . إذ أقاموا فيبصل ملكا على العراق وأخاه عبد الله على
شرق الأردن .

ويمكننا تلخيص قصة فلسطين أيام النبي هنا . فقد كانت سياسته أن
يديرها — قدر المستطاع — وفقاً لما تمليه القوانين الدولية التي تطبق على بلاد
الأعداء المحتملة في الحرب وكانت تقضى بأن يكون الحاكم مجرد أمين ليس من

شأنه أن يغير من الأوضاع القائمة أو القوانين الموجودة إلى أن تقرر معاهدة السلام مصيرها . وكان ذلك في نظر النبي مانعاً من منح القضية اليهودية أى امتياز من الامتيازات حتى يضع مؤتمر السلام قراراته . ولكن على الرغم من كل ذلك وضد كل القواعد المقررة أرسلت وزارة الخارجية البريطانية لجنة صهيونية إلى فلسطين في ربيع سنة ١٩١٨ . ولكن النبي استمر في حرصه على التفسير الحقيقي لواجبات الإدارة الحربية ما أمكنه ذلك حتى أصبح هدفاً لنقد بعض ضيق الصدر من الصهيونيين . ولما أن اعتبر ضابط النبي السياسي كولونيل ماينتزرهاجن Meintzerhagen - وكان ضابطاً بقلم المخابرات سنة ١٩١٧ - أن النبي لم يتبع سياسة وزارة الخارجية حسب تصريح بلفور أرسل إلى الوزارة رسالة في هذا المعنى فلما رآها أحد أصدقائه أنذره بأن النبي لن يسمح لأحد ضباطه بمثل ذلك النقد وأجاب ماينتزرهاجن باحتمال ذلك ثم مضى مصراً على القيام : يعتقد من واجبه . ولكن جاء عزله أسرع مما تنبأ به صديقه فقد تم ذلك في الحال عقب رؤية النبي لنسخة من تلك الرسالة ومع ذلك فلم يكن ماينتزرهاجن بالذى يخشى النبي بل كان يقابله بمقابلة الأنداد وكان تعليقه الوحيد « كنت أحسبك تعتقد أن من الواجب عليك أن تعطى خادمك مهلة أطول بعد إنذارها ، فضحك النبي وافترقا وهم أصدقاء . لقد كانت لهما هواية واحدة هي دراسة الطيور .

وفي أواسط سنة ١٩١٩ حل المAJOR جنرال سير « هارى واتسون » محل سير « آرثر موني » كحاكم عسكري على فلسطين ثم حل مكانه هو أيضاً المAJOR جنرال سير « لويس بولوز » الذى كان رئيساً لأركان حرب النبي . وقد انتهت الإدارة العسكرية نفسها في آخر يونيو سنة ١٩٢٦ حين أصبح سير « هربرت

صمويل ، أول حا ، دنى هناك . أما تقدم التجربة الصهيونية فيما بعد ، نجاحها وفشلها ، والرخاء الذى أتت به والبعض الذى أثارته وما فى ذلك النزاع المشؤوم من صواب أو خطأ كل ذلك لحسن الحظ خارج عن نطاق هذه الترجمة . لقد احتفظ ألنبي جهده — بحياد دقيق فى كل هذه الخلافات السياسية فى سوريا وفلسطين إن عطفه كان — ولا شك — مع فيصل والعرب لكنه استعمل سلطته ونفوذه لىبقى العرب ضمن النطاق الذى وضعته حكومات الحلفاء مدة إدارته لسوريا . وكان من رأيه أن تشجيع وزارة الخارجية للحركة الصهيونية إنما هو عمل سابق لأوانه إذ لا تزال فلسطين تحت الإدارة العسكرية والقانون الدولى يمنع من أى تغيير رئيسى فيها ، ومع ذلك فلم يكن بدأ معاديا لرغبات اليهود فيما يختص بزيادة الهجرة وليس من الممكن بعد ذلك أن ننسب إليه أنه كان يتوقع كل الأخطاء التى جلبتها التجربة الصهيونية .

مصر - الحماية

مارس سنة ١٩١٩ - فبراير سنة ١٩٢٢

ربما يختلف ما يصيبني من خير وما يصيبك من خير ، ولكن الخير أو الشر الذي يُجبر الناس عليه خليف أن يضج منه الشعب ألاماً .
(الملك فيصل ... ذكرت في كتاب لورنس)

غضب أمة (مارس - أبريل سنة ١٩١٩)

قليل من الانجليز - حتى من الذين عرفوا مصر جيداً - من نظر في مارس سنة ١٩١٩ إلى المصريين على أنهم أمة بمعنى الكلمة ، وقليل منهم من وجد لغضبهم سبباً معقولاً . فلما كنا مشتغلين بالحرب أو شكنا أن نقطع خلالها كل صلة لنا بالشعور المصري حتى لقد بلغ الأمر بنا أن حسبنا إعلان الحماية في ديسمبر سنة ١٩١٣ - الذي كان مجرد إجراء حزبي - والذي حسبه كذلك أغلب المصريين - تقريراً لمستقبل مصر وبذلك لم يعد يحتاج هذا المستقبل في نظرنا إلى أى تغيير عاجل . لم تحدث الحماية يومئذ في نظام الحكومة المصرية سوى تغيير بسيط . فقد بقيت وزارة الخارجية الوحيدة بغير وزير مصري إذ أحييت أعمالها على المعتمد البريطاني وبينما لم تمس بشيء تلك الامتيازات - التي تستثنى الأجانب استثناء كبيراً من السلطات القضائية والتشريعية والمالية - كان من أهم مزايا الأحكام العرفية التي أعلنت في نوفمبر سنة ١٩١٤ أن أعطت مراسيم الوزراء المصريين سلطة التنفيذ على الأجانب رغم هذه الامتيازات .

ولقد فسر هدوء مصر في ظل الأحكام العرفية مدة الحرب بأنه موافقة منها أو على الأقل عدم اهتمام بالحالة الراهنة . ومن الوجهة المادية كانت مصر في رخاء شامل إذ قفزت فيها أثمان القطن — محصولها الرئيسي — قفزة لم يحلم بها أحد ، بينما دفع الجيش أثماناً طيبة لكل ما اشتراه من العلف والحيوانات والمحاصيل الأخرى ، كما كانت مرتباته التي يدفعها عالية إلى إطعامه الفلاحين المجندين في الفرقتين العظيمتين فرقة الجمالة المصريين وفرقة العمال المصريين الطعام الحسن كل ذلك زيادة على ما أنفقه الجنود أنفسهم بسخاء في القاهرة والإسكندرية وبعض الأماكن الأخرى ، ثم إن مصر قد تمتعت بكل مزايا الحرب الطويلة المضنية من غير أن يصيبها هي شيء من خسائرها . فلماذا إذن لا ترضى ؟ أو لم يبلغ الجحود بها أن تعض اليد التي أطعمتها بسخاء كل تلك السنوات التي كان فيها الفزع والفقر والموت نصيب كثير من الشعوب ؟

وطبيعي أن يكون هذا رأى الجنود الذين يؤلفون جمهرة البريطانيين في مصر أو آخر الحرب فقد انحصر كل تفكيرهم ونشاطهم في الأعمال الحربية ولم يسمح لهم وقتهم بالعناية بالمسألة المصرية أو حتى بمشاعر المصريين . أما القلة المستنيرة من موظفي وزارة الخارجية وموظفي المصالح المدنية والضباط الحربيون الذين اشتغلوا بمسائل الأحكام العرفية والأمن العام والبريطانيون المقيمون في مصر والذين اتخذوها وطناً ثانياً لهم فقد أدركوا كلهم تلك المشاكل والأخطار وإن كانوا قد فشلوا جميعاً فشلاً تاماً في تقدير نمو الروح الوطني وفي تقدير قوة إحساس المصريين — المتعلمين والأميين من الفلاحين — بالأممهم ، كما لم يدركوا أن تلك الأمة قد وجدت لها زعيماً يعبر عن روحها وعضها .

ولقد بدأ نمو هذا الوعي الوطنى قبل الحرب بزمن بعيد نتيجة لحرية القول والفكر والرخاء المادى الذى جلبه الاحتلال البريطانى ، ثم أثارته الجمعية التشريعية التى أنشأها كمتشتر سنة ١٩١٣ ويرجع ازدهاره السريع فى نهاية الحرب - غالباً - إلى ارتوائه من مذاهب تقرير المصير وحقوق الأمم الصغيرة التى نادى بها زعماء الحلفاء السياسيون أثناء الحرب وخاصة ذلك المثالى المدرسى الرئيس ودررو ويلسون .

بل حتى أولئك الذين كان أولى بهم أن يميلوا نحو بريطانيا العظمى - السلطان المدين لهم بعرشه ، ورشدى رئيس الوزراء الذى أدار دفة الأمور بمصر مدة الحرب . والوزراء الآخرون ، وكبار الملوك الذين أثروا ثراء كبيراً من بيع القطن (طبقة الباشوات) قد خاب ظنهم لعدم اعتراف بريطانيا بمساعدة مصر لها فى مجهود الحرب فبينما سمح لعرب الصحراء بحضور مؤتمر السلام وعرض قضيتهم فيه ، كما سمح كذلك للقبرصيين والسوريين ، عومل المصريون - وهم الأكثر منهم مدينية - كما لو كانوا مستعمرة بريطانية إذ رفض السماح لهم بالاشتراك فى المؤتمر ، ولربما أحس المصريون حينئذ إحساس صاحب المنزل استعمل منزله - مدة طويلة - فندقاً من نزلاء - ولو أنهم دفعوا له أجر إقامتهم - إلا أنه لم يدعمهم بنفسه - ثم ظلوا فيه دون أن يقدموا كلمة شكر له .

أما شكايات طبقة الأفندية فترجع فى أساسها إلى الأثر المنتظر من التعليم الأوربى فى العقل الشرقى المستعد بطبيعته لاستيعاب العلم بسرعة ولكن بغير تعمق مع فقد الثبات الخلقى الذى يجب أن يحدثه العلم . فقد أنشأ ذلك التعليم طبقة متزايدة من الراغبين فى الوظيفة الحكومية أو فى الحاماة . ولما زاد

المتخرجون عن الحاجة تحولوا إلى السياسة والصحافة والتبليغ . وكان اعتقادهم البسيط أن الحكم الانجليزي وقد هيا للتعليم بقاءه عليه كذلك أن يهيء للتعليم العمل الهين المضمون . وعلى هذا بدت لهم كل وظيفة يشغلها في الحكومة انجليزي كأنها اعتداء على حقوقهم . غير أنه يجب الاعتراف بأن صفات الموظفين البريطانيين قد انحطت أثناء الحرب لذهاب الكثيرين من خيرتهم إلى ميادين القتال على حين كان عددهم آخذاً في الازدياد قبل الحرب بسنوات عدة . وذلك ما أحق المصريين . وإذن فمن وجهة النظر المصرية انحطت المساعدة البريطانية بينما ازداد التدخل البريطاني .

وأما شكاوى الفلاحين فكانت أبسط من ذلك وأكثر مادية ، فقد ازدادت حاجات الجيش — كلها تقدمت حملاته — إلى العمال والحيوانات والمواد الغذائية ولم يعد التطوع يكفي وحده للوفاء بها وبذلك لم يجد رجال الحرب وسيلة للحصول على حاجاتهم — سوى الضغط على الحكومة المصرية وأدى ذلك بدوره في النهاية إلى أشنع صور الضغط في القرى . فراحوا يخذون الناس رغم إرادتهم في فرقة العمال وأخذوا يستولون على حيواناتهم ومحصولاتهم حتى كانت تؤخذ منهم أموالهم أحياناً باسم اكتتاب للصليب الأحمر . وكما يحدث دائماً في مثل تلك الاضطهادات وقع العبء الأكبر على أشد الناس فقراً وأقلهم نصيراً من غير أن يدرك الجيش والموظفون من الانجليز كل تلك المظالم التي ترتكب باسمهم . ولكنهم — بالطبع — مذنبون في نظر الفلاحين . لقد أغضى الفلاحون عن الحكم الانجليزي لحمايته لهم من الظلم أما وقد أصبح الانجليز هم أيضاً ظالمين إذن فليسقط الأجانب الملاعين . وما حل عام ١٩١٩ حتى تهيأت في الدلتا مواد كثيرة تنتظر الاشتعال .

لم يكن الرجل الذي أشعلها وهو سعد زغول — ذلك الذي قدر له أن
يصير البطل الوطني والمناهض الأول للسياسة البريطانية في الثماني سنوات
التالية — غير خليق بتمثيل مزايا قومه وعبوبهم . كان رجلاً من الشعب كعرابي
باشا الذي سببت ثورته الاحتلال البريطاني كما كان أول مصري صميم من غير
طبقة الحكام القديمة من الأتراك يتولى منصب الوزارة . وكان نزيهاً وطنياً
وهب القدرة على الخطابة المؤثرة الحية والمقدرة الدقيقة على رؤية وتقدير
الجانب الفكاهي للأشياء . وكان طويلاً نحيفاً بارز عظام الخدين ضيق العينين
وكان شجاعاً صريحاً في بعض الأحيان متردداً خائفاً في أحيان أخرى ، ويستطيع
أن يكون جذاباً لو لم يكن طاغية فظاً من حين إلى آخر . ولأنه لم ينبج سرته
جداً صحبة الأطفال . وكان نبيلاً مهذباً مع النساء دائماً وتعتبر حياته الزوجية المثل
الأعلى للصدقة — زوجته بنت رئيس وزراء معروف هو مصطفى فهمي باشا
تعاون في إخلاص مع اللورد كرومر سنوات طويلة — ولم يكن سعد يطبق
تعذيب الحيوانات . حكى أنه عندما كان منفيًا في جبل طارق سنة ١٩٢٣ دعى
لزيرة مدينة أسبانية أقيمت بها مصارعة للشيران فما كاد يرى ذلك حتى صدمه
المنظر وغادر المكان في الحال بطريقته التي لا تقلد ثم أعلن لمضيفه في قوة رأيه
فيه وفي الذوق والثقافة الأسبانية وكان مما قاله له « إن الحيوانات لا تستطيع
الكلام لكنها تفهم . بينما البشر يتكلمون ولكن غالباً لا يفهمون » . لم يكن
زغول زعيماً بطبيعته كما اكتشف ذلك بسرعة من اختاروه في الأصل لذلك
المركز ، وكثيراً ما كانت تروعه هو تلك المكانة الخطيرة التي وجد نفسه
فيها ، ومع ذلك فقد كان مغروراً غيروراً على زعامته كما كان طموحاً . والطموح
كما قال مارك أنتوني « يجب أن يكون من طبيعة بالغة الجد والقوة ، ولكن

قليلا ما يغرى التعب والخطر المتعلم العادي من المصريين . فكان زغول مستعداً للمتاجرة بالقليل الذي قاساه منهما في سبيل أمته بل وللنبالغة في المقدار الذي عاناه ، وإن الثوريين في الجماعات الأشد مراساً لياً نفون من اعتبار متاعب زغول هذه مشاقاً على الإطلاق . لقد كان أقل شجاعة وحكمة سياسية بل حتى أقل مقدرة على التفاهم من « دى فاليرا » المناهض المعاصر لإنجلترا .

كان زغول أول ناظر للمعارف في مصر اختاره لورد كرومر وقال عنه في خطبة له قبيل مغادرته مصر « إن لم أخطيء فسيكون لزغول بك ناظر المعارف الحالى مستقبل عظيم النفع للشعب ففيه جميع الصفات الضرورية لخدمة بلده أمين قدير له من الشجاعة ما يتفوق ومعتقداته » ولكن كانت كفاءاته على الرغم من ذلك كفاءات هدم أكثر منها كفاءات بناء ، وسرعان ما اتجه إلى المعارضة يبشر بتعاليم الاستقلال التام لمصر سنوات عديدة ، ومع ذلك لم يكن هو مؤسس الوفد كما عرف بهذا الاسم حزبه من بعد ، بل كان الوفد من عمل الآخرين ، عمل أناس معروفين مثل محمد محمود باشا ، وإنما وافق زغول على الانضمام إليه فقط بعد أن رفضت وزارة الخارجية ترشيحه للوزارة .

أما تسابق الحوادث التي أدت إلى ذلك الانفجار فكانت باختصار كالآتي :

زار زغول المعتمد البريطاني سير « ريجنالد وينجت » بعيد الهدنة على رأس وفد معه وجعل يطالب — مدعياً الكلام باسم الشعب المصرى — بالاستقلال التام لمصر ، فلما أخذ المعتمد البريطاني على غره أجاب بالإجابة التي لا تلزمه بشيء ، وكان زغول في نفس الوقت قد طلب كذلك أن يسمح له ولو فده بالسفر إلى لندن لعرض القضية المصرية على الحكومة البريطانية .

وبعد أن نظرت وزارة الخارجية البريطانية في هذا الطلب أرسلت رأيها
بالرفض رفضاً لا سبيل معه إلى الاتفاق . فما كان من زغلول — حينئذ —
إلا أن بدأ حملته ليضم الأمة إليه للدفاع عن قضيتها . وفي نفس الوقت طلب
ممثلو مصر الرسميون — رشدي رئيس الوزراء وزميله عدلي — أن يسمح
لهم كذلك بالسفر إلى إنجلترا لبحث مستقبل مصر وأيد المعتمد البريطاني
بقوة طلبهم هذا ولكن جاءت إجابة وزارة الخارجية « أن لا جدوى وراء
هذه الزيارة » لقد كانت من غير شك غلظة فاحشة . كانت غلظة من حيث
الأسلوب السيء لا النية السيئة ولكن في الشرق يعطى الأسلوب أهمية أكبر
— وربما أعطيت النيات أهمية أقل — مما هي الحال في أوروبا وهذا الفرق
نادرًا ما يلاحظه الانجليزى العادى . إن المصرى ليقدر التهذيب أكثر مما
يقدره الانجليزى في الوقت الذى يقدر فيه المصرى العدل المجرد أقل منه ...
ولكن لا بد أننا قد بدونا للمصريين — في نهاية الحرب — لا مهذبين ولا
عادلين . وطبيعى أن تتدهور مقاييس التهذيب والعدل أثناء الحروب .

ارتكبت إذن وزارة الخارجية خطأين . خطأ بعدم احترامها لنصيحة
الرجل المسئول والموجود في نفس الموقف وأخر برفضها السماح لتلك الشكاوى
بالتنفيس عن ذاتها . تصرفان مشكوك دائماً في صوابهما ، وكان عذرهم يوم
ذاك أن مؤتمر السلام شغل كل أفكارهم . ولكن كان هذا العذر مع ذلك
هو نفس السبب في تدمير المصريين ، فقد وعدت العرب والشعوب الأقل
مدينة من المصريين بعرض قضيتهم في باريس بينما لم يسمح لهم بذلك .

لقد ألقى هذا الموقف الذى وقفه الانجليز وقوداً جديداً في حمة زغلول
النارية ، وكذلك قدم رشدي وعدلي استقالتهما بعد أن رفض طلبهما .

واستدعى حينئذ السير ريجنالد وينجت ليشرح الموقف بنفسه فراح يلح دون فائدة بضرورة السماح للوزراء المصريين ولزغلول بالمجيء . فلما قرب شهر فبراير سنة ١٩١٩ أن ينتهى ، دعا وزير الخارجية مستر بلفور رشدى وعدلى لزيارة لندن ولكن جاء ذلك بعد الأوان حين جاوزت حملة زغلول كل حد بحيث أصبح واضحاً للوزيرين أن أى اتفاق يصلون إليه فى لندن سيرفض فى مصر ما لم يوافق آراء زغلول ، ولذلك رفضا أن يذهبا إلا أن يسمح لوفد زغلول بالسفر هو الآخر ، وهذا ما لم تكن لتقره وزارة الخارجية .

والآن لم يكن الانفجار ليتأخر فقد بلغ الهياج الذى أثاره زغلول حد التهديد بخلق الاضطرابات والأخطار للبريطانيين والأجانب الآخرين بمصر ولم تجد السلطات الحربية سييلاً إلا أن تنذره ليكف عن نشاطه فى الحال . ولما رفض الخضوع قبض عليه فى ٨ مارس سنة ١٩١٩ كما قبض على ثلاثة من زملائه ونفى الجميع إلى مالطه . وما هو إلا أن اشتعلت مصر كلها بالثورة فى بضعة أيام . كان مظهرها الأول هجوماً غير منظم على المواصلات فى كل أنحاء البلاد ، فقطعت خطوط السكك الحديدية وأحرقت المحطات وقطعت أسلاك البرق والتليفون وسرعان ما عزلت القاهرة عن بقية البلاد . لم يكن عدد الضحايا من الأوربيين كبيراً . وإن قتل ثمانية من الانجليز فى ظروف بالغة الوحشية بينما كانوا مسافرين بالقطار من الاقصر إلى القاهرة ، ولقد أعلنت يومها قصة هذه المأساة المحزنة ، أما قصة هانم عارف - وهى ساقطة من ملوى - فلم تُعرف كما ينبغى وربما لانخرج بذكرها هنا عن الموضوع . لما وصل القطار ملوى وكانت جثث القتلى من الانجليز مكومة فى إحدى العربات قابلته فى المحطة جماهير فقدت رشدها وراحت تجر خارج العربة جثة رجل منها كانت لاتزال

به نسمة من الحياة مبالغة في التمثيل به . ولم يتحرك الشعور الإنساني في واحد من هذا الجمهور المؤلف من ألفي شخص من جميع الطبقات إلا في قلب هانم عارف إذ أبكاها المنظر فحاولت أن تحمي بنفسها جثة الرجل لكنها ضُربت ونُحيت .

وأثر عملها الرحيم هذا في نفوس الجالية البريطانية أعمق الأثر ففتحوها قائمة اكتب لها وفكروا أول الأمر في إعطائها قطعة أرض إلا أنها احتفظت بمميزات طبقتهما إذ فضلت الحلى واختارت سوارين غليظين من الذهب وخاتما مهر باسمها ثم أعطوها سواراً ثالثاً عليه كتابة مناسبة وما بقي من الاكتاب أخذته نقداً . وكان ما كتب على السوار كما يأتي :

إلى هانم عارف

هدية الاعتراف لجميل عطفها على جندي بريطاني محتضر في ١٨ مارس

سنة ١٩١٩

إن الله يثيب فاعل الخير

كان الجنرال « بالفن » قائد الجيش في غياب أللبي وهو رجل رابط الجأش إلى درجة خارقة وجندي متزن العقل وكان في الحق رجل الموقف فما رأى ذلك حتى ألف فرقا سيارا راحت تجوب البلاد لإعادة النظام ولم ينقض أكثر بقليل من أسبوع حتى كان زمام الموقف في يديه . وأسرعت الحكومة البريطانية في نفس الوقت بتعيين أللبي معتمداً بريطانياً لها كما ذكرنا من قبل ثم أمدته بتعليمات منها « أن يستخدم أقصى سلطته في جميع المسائل الحربية والمدنية وأن يتخذ كل الاجرامات اللازمة والملائمة لاعادة القانون والنظام وأن يدير كافة الشؤون بما تتطلبه ضرورة استمرار الحماية البريطانية على مصر على أساس وطيء مشروع » .

كان النبي رابع أربعة من الجند مثلوا انجلترا في مصر . فأما السير هينري
مكماهون ، وكان زميلاً للنبي في هيلبري في الكلية الملكية الحديثة - فقد
خدم في الجيش بضعة سنين فقط قبل أن يلتحق بالسلك السياسي . وأما
الثلاثة الآخرين - كتشنر ووينجت والنبي نفسه فقد كانوا جنوداً عاملين
وقتما عينوا .

وصل النبي القاهرة في ٢٥ مارس سنة ١٩١٩ فوجد الأمور يطردها
في قبضة « بالفن » القوية وراح يستعرض الموقف ويأخذ رأى مستشاريه من
البريطانيين والمصريين ولم يأت مساء اليوم التالي لوصوله حتى قام يخطب في
جماعة من الأعيان وجهت اليهم الدعوة للحضور في دار المعتمد البريطاني .
« لقد عيني جلالة الملك معتمداً له في مصر ورغبتى وواجبي أن أساعد
على إقرار السلام والهدوء وإرضاء المصريين .

أما نواياي فهي :

أولاً : وضع حد للاضطرابات الراهنة .

ثانياً : القيام بتحقيق دقيق لكل المسائل التي سببت غضب البلاد .

ثالثاً : إزالة أسباب الشكوى متى ثبت صدقها .

« إنكم أنتم من يستطيع توجيه الشعب المصري وواجبكم أن تعملوا معي
لمصلحة بلادكم . لا يمكنني أن أعتقد بأن واحداً لن يساعدني في كل سبيل
أسلكه ، بل إنني على استعداد أن أعتد عليكم للبدء بالعمل توأ وكل قصدي
أن تهدأ العواطف الثائرة التي جمحت الآن وبعد أن يعود الهدوء أوقن بانكم
ستثقون بي لتحقيق جميع الشكاوى بنزاهة . وسوف أتقدم بالاقترحات
المطلوبة لرضا المصريين وخيرهم . »

لم يتحول النبي عن خطته هذه أبداً . ولكن حدث في نفس الوقت

تقريباً - بينما كان يعمل هو على سكب الزيت فوق الماء الفائز - أن نشرت في القاهرة خطبة اللورد كرزون في ٢٤ مارس فأثارت بنشرها حنق المصريين العظيم . فقد وصف كرزون الاضطرابات في مصر بأنها « حوادث سطو أكثر منها حركة سياسية » ثم قال « إن الشيء الوحيد الذي يغتبط له هو تصرف كثير من الموظفين المصريين . . وكانت النتيجة المباشرة لذلك أن أضرب هؤلاء الموظفون ليظهروا بإضرابهم أنهم لا يقادرون من حيث ظنهم كرزون .

وأبرق أللبي في ٣١ مارس - ولما يمض عليه أسبوع - إلى الوطن ينصح بإطلاق سراح زغلول وزملائه والسماح لهم بالسفر إلى أوروبا ، فكانت هذه التوصية منه صدمة للحكومة البريطانية . لقد أرسلوا رجلاً قوياً ليخضع لهم شعباً عاصياً فكان أول اقتراح قدمه لهم تساهلاً سبق أن رفضوه مرتين . وراحت وزارة الخارجية تستشير وينجت - الذي سبق أن أشار عليهم بهذا السماح - عاد الآن يلح في تذكيرهم بأن أي تساهل في الظروف الراهنة سيعد ضعفاً منهم لا يليق .

ولكن كان من الصعب على الحكومة البريطانية أن تتغاضى عن نصيحة الرجل الذي أعطته منذ قليل كل السلطات التامة لمعالجة الموقف . فوافقت على اقتراحه على مضمض منها . وأعلن أللبي في ٧ إبريل الإفراج عن زغلول وزملائه الثلاثة والسماح لهم بالتوجه أينما يريدون . ولقد قُدر لثلاثة من هؤلاء الأربعة وهم اسماعيل صدقي ومحمد محمود وزغلول نفسه أن يغدوا رؤساء وزارة في مصر أما الرابع وهو حمد الباسل فكان كماً زائداً وهو زعيم بدوى قليل التعليم . ولقد هوجم - يومئذ وفيما بعد - هذا التصرف الحكيم الذي قام به أللبي هجوماً قاسياً حتى إن متكلاً باسم وزارة الخارجية ختم موجزاً

معاصراً للحوادث بهذه الكلمات « وعلى ذلك فقد حقق أسبوعان من العنف ما لم تحققه أربعة شهور من الإقناع ولن ينسى قط مغزى هذا الدرس لا في مصر ولا في أي مكان آخر من الشرق » وكتب بريطاني مقيم بمصر وله بها معرفة طويلة « إن إعلان ٧ إبريل كان له وقع القنبلة علينا فمن حيث توقيف مركز بريطانيا وسلامته يعتبر عمل اللبني هذا إحدى المصائب إذ بات على من كانوا قبل ذلك مستعدين للوقوف بجانبنا أن يذهبوا إلى الجانب الآخر حماية لأنفسهم » وقال لورد لويد في كتابه « مصر منذ كرومر » وقد نشر بعد ذلك الوقت بزهاء أربعة عشر عاما .

« إن من الصعب تبرير هذا الاستسلام لعامل الفوضى . فهما بدا قرار نبي الزعماء وعدم السماح لهم بالسفر غير حكيم أو بدا ظالماً فإن نقض هذا القرار وفي مثل تلك اللحظة كان له من المؤكد تفسير واحد وتفسير واحد فقط : هو أن القوة نجحت حيث فشلت الطرق الدستورية » ولكن على الرغم من ذلك قليل ممن درسوا تاريخ مصر قبل الأزمة وبعدها من يخطئ اللبني أو من يظن أنه كان ممكناً - باستعمال وسيلة أشد عنفاً - أن يغير الرأي المصري أو يغير مجرى الحوادث التي وقعت فيما بعد . إن كلام لورد لويد يتضمن أنه لو أطلقت يد جنرال « بالفن » للسير بأجراءاته إلى نهايتها لتغيرت بذلك الحال ولكن جنرال « بالفن » نفسه كان من الذين نصحوا ببعض التساهل لوجهة النظر المصرية وكان ذلك منه قبل وصول اللبني وبعد وصوله على السواء ، وكذلك كان كلايتون^(١) وهو من يعرف مصر جيداً ومن لا يمكن إتهامه بضعف تصميمه كما لا يمكن إتهام « بالفن » وأما افتراض أن اللبني إنما تصرف مدفوعاً

(١) سير جلبرت كلايتون مستشار الداخلية مات وهو يلعب البولو أثناء توليه منصب المندوب

السامي في العراق ، مات في سبتمبر سنة ١٩٢٩

بقلة حزمه فافتراض ينفيه تاريخ حياته كما تنفيه أخلاقه .

ويمكن أن نجد مفتاح عمله في تلك المرحلة من تعليق له صرح به لأحد ضباطه وكان قد جاءه بتقرير يشير فيه أحد مرؤسيه باستمرار إلى الصعوبات المحيطة بموقفه ، قال النبي « ما الذى يعنيه هذا الرجل بتلك الصعوبات المحيطة بموقفه ، أنا ما وجدتني أبدا في موقف صعب طول حياتي . لقد وجدت أحيانا في موقف مستحيل وعندئذ كنت أتخلص منه بأسرع ما أستطيع ، ن هذه الإشارة لتلقى لنا ضوءاً يكشف أمامنا خلق النبي كله : أنها ترى قوة رجل أعاد لمواجهة أى موقف ولا إنكار كل صعوبة تعترض مجرى عمل يعتبره صوابا ومع هذا كانت له البصيرة التى يعرف بها العمل المستحيل والشجاعة والأمانة اللتان تجعلانه يعترف بذلك . فسرعان ما أدرك أنه — ولو أن الثورة المصرية قد نفخ المهيجون فيها إلى درجة الغليان — الا أن قوة الغليان هذه التى فاقت الحد كانت التعبير الذاتى لغضب أمة له أسبابه . فما كان أيسر عليه — بما فى يديه من قوة — أن يتخذ من الإجراءات الصارمة ما يقمع به وينتقم لكنه بذلك لم يكن إلا ليزيد فى صعوبة الوصول إلى التفاهم الودى مع الشعب المصرى ذلك التفاهم الذى بدونه يصبح مركزنا فى مصر مستحيلا . ولقد كان على علم بأن عمله هذا سيرمى بالضعف فى معظم الدوائر ولكن كان له من القوة والحكمة ما يكفيه للقيام بعمله . وكبكية القرارات التى أتخذها فى حياته — عظمت أو صغرت — لم ينظر وراه قط لتبريره أو للدفاع عنه .

وبعثت النتيجة المباشرة لذلك على التفاؤل إذ انقلبت مظاهرات الفوضى إلى مظاهرات إبتهاج وعاد رشدى إلى رئاسة الوزارة إلا أن عناصر الشر — التى حلت الثورة عقابها — ظلت تستوجب القضاء عليها فكان لا يزال يقع كثير من الحوادث البشعة — كقتل الجنود البريطانيين والمدنيين من الأرمن

واليونان — في المدن وفي الأقاليم على السواء . وكان لا يزال من الاضطراب كثير مما يستلزم القمع بيد قوية . في الوقت الذي قام المتطرفون فيه بمجهود آخر لاستعادة السيطرة بالقيام بحملة تهديدية ضد موظفي الحكومة حتى نجحوا في الوصول إلى تنحي رشدي باشا ثانية عن رئاسة الوزارة في ٢١ إبريل . فرأى اللبني أن يوقف التهديد باعلان صارم أصدره في ٢٢ إبريل ثم ألف الوزارة محمد سعيد باشا — وهو تركي من المدرسة القديمة قوى ولكن لا يبالي — بعد ذلك بشهر لتسيير دفة الحكومة المصرية . ثم أعقب ذلك فترة هدوء نسبي . وسنختم هذا الوصف للمتاعب المصرية بهذه النادرة اللطيفة وهي حديث دار بين لورد اللبني وبين أحد جنرالاته في مؤتمر عقد بابريل عندما كانت تدرس الإجراءات لتخفيف العقوبات والرقابة .

اللبني : سمعت أنك تفرض غرامات قاسية على القرى في منطقتك .

الجنرال : نعم ياسيدى إذا سلكت قرية مسلحاً معيها غرمتها بمقدار ١٠٪ من ضريبة الخنفر المستحقة عليها .

اللبني : ذلك غير ما سمعت إذ أخبرت أنك تفرض عليهم غرامة تعادل عشرة أمثال ضريبة الخنفر .

الجنرال : نعم هذا حق ياسيدى . عشرة في المائة .

نبي : ولكن ليس هذا ١٠٪ هذا ١٠٠٠٪ في المائة .

الجنرال : أوه . أهو ذاك (ثم يتوقف وتلى ذلك فتره سكوت) . حسنا عندما أقول لهم ١٠٪ يعرفون ما يجب عليهم أن يدفعوه ثم يدفعونه بالتمام ياسيدى .

أبو الهول واللغز

مصر مايو ١٩١٩ — ديسمبر ١٩٢١

إن شخصية بمفردها فعلت الكثير لتعيد سمعة الانجليزية وكلمته
الى القمة التي بلغها قبل الحرب — من مقال بالتمس
عن لورد أللني . يوليه سنة ١٩٢٥

الصلح — المسالمة

أتم أللني مهمته وهي إعادة النظام والقانون إلى مصر ، وسواء رجع ذلك
إلى التصفية الحكيمة كما ظن مؤيدوه أو عاد إلى التسليم الأحق كما ادعى ناقده
فالواقع أنه أتم ذلك بأسرع ما كان في الإمكان ومن غير أن يشير الألم في نفس
شعب كانت كراهيته ظاهرة . ولقد وقعت من وقت لآخر بعض الاضطرابات
في السنوات الست التي قضاها في منصب المعتمد البريطاني وأتهم مرات أخرى
بالضعف وبالتردد في معالجتها ولكنه نجح في مايو سنة ١٩١٩ في تحقيق فترة
من الهدوء النسبي يمكن معها تقدير الجزء الثاني من مهمته وهو « استمرار
الحماية على أساس وطييد مشروع » .

لم يحتاج أللني وقتاً طويلاً ليفهم أن الحماية علاقة مستحيلة بين بريطانيا
ومصر ، ولكن حكومة جلالة الملك لزمها ثلاث سنوات حتى وصلت إلى هذه
النتيجة . ولزمها أربع عشرة سنة أخرى لتحقيق بمعاودة ما كان يرجى أن تكون
قاعدة وطييدة مشروعة للتفاهم بين البلدين ولو بمحنة حرب جديدة ، ولقد كانت
الخطوة التي خطاها أللني في أوائل سنة ١٩٢٢ أول خطوة حاسمة في طريق
هذا التفاهم .

ولكى نقدر الخدمات التي قام بها ألنبي في مصر وتتبع تعقيدات المشكلة التي حيرت الدبلوماسية والحكومة يجب أن نقدم صورة واضحة للأشخاص والحوادث وللوقف فأولا : قليل من مراقبي البريطانيين - حتى من الذين وكل اليهم أمر إدارة صلاتنا بمصر - من فهم تاريخها أو نظام الحكم الذي سادها فهماً صحيحاً . فالإنجليزى العادى يعلم أننا أخذناها بلداً مفلساً غير منظم مضطهداً ، وأننا بإدارتنا النزيهة الماهرة أصلحنا ماليتها وأقمنا العدالة بها وأحللنا النظام محل الفوضى ثم يعلم أننا قدناها وحكمنها منذ ذلك الحين . ولكن قليل من كان يعرف أن مصر كانت تتمتع باستقلالها الذاتى تحت الحكم التركى منذ أيام محمد على وأن هذا الاستقلال كاد أن يكون تاما إذا استثنينا الامتيازات . وإذن فلم يكن المصريون - حين طالبوا بالاستقلال يبحثون عن شيء لم يسبق لهم أن عرفوه بل كانوا يبغون بذلك استعادة حقوق اكتسبوها يوم كان الأتراك سادتهم . وإن كان صحيحاً أن تلك الحقوق إنما اكتسبها وتمتع بها حاكم أجنبي مطلق لاهذا الشعب المصرى الذى يطالب بها الآن .

لم يفهم غالبية الناس كيف كانت تدار الرقابة البريطانية لا ، ولا هم أدركوا أن القوة التنفيذية لم تكن بأيدي المستشارين البريطانيين وأن قراراتهم إنما تسكتسب القوة التنفيذية عن طريق الوزراء المصريين الذين يقدم لهم هؤلاء المستشارون مشورتهم . وكان اللورد چرانفيل الوزير البريطانى المختص من وضع سنة ١٨٨٤ القاعدة التي تحتم قبول المشورة المقدمة من المستشار البريطانى الى الوزير أو الحاكم المصرى . وبهذه الوسيلة أصبح البريطانيون حكام مصر الحقيقيين . ولكن لا بد من أن يفهم أن الوزراء فقط هم وحدهم من يستطيعون إصدار الأوامر وعمل القوانين وأنه بدون الوزير يستحيل أن

تحكم مصر حكماً مدنياً . وقامت الحماية فلم تغير من هذه الحالة شيئاً إذ مازال المستشارون البريطانيون عاجزين تماماً عن القيام بأى عمل طالما لم توجد الوزارة التي يقدمون لها مشورتهم فإذا لم توجد هذه الوزارة يصبح محتماً أن تحكم البلد بالاحكام العرفية وهذه في الواقع طريقة من طرق الحكم السيئة وبالأخص في أوقات السلم ثم هي بعد ذلك تناقض تماماً تقاليد البريطانيين . وعلى هذا يجب أن يكون هم اللبني الأول أو أى معتمد بريطاني سواء أن يوجد الوزارة التي تستطيع القيام بأعباء الدولة .

ويمكن الحديث عن اللبني الإداري في مصر لكننه في الحقيقة لم يتم بالإدارة قدر ما اهتم « بإيجاد وزارة » . وكان عليه في بعض الأحيان أن يقنع سياسياً مرتاباً جذعاً يكره العمل بواجبه في قبول العبء رغم رفض دونجستريت وضجيج الأزهر وهذا عمل لم يكن لللبني رغبة فيه ولا له مران عليه . ولكن على الرغم من ذلك فقد بلغ به إخلاصه وحسن تقديره - وهي صفات طبيعية فيه - وصبره واحتماله - ويتحققهما فيه من عرفه تماماً - مبلغاً من النجاح عز على أى دبلوماسي محنك .

ولقد ظل اللبني - في محيط السياسة المصرية المضطرب - الشخص الوحيد الصلب الثابت المستقيم دائماً المخلص لكلمته أبداً الذي كانت نعم عنده هي نعم ولا عنده هي لا . والذي كان على استعداد أن ينصح في عطف وأن يصغي في محبة ، والذي ما تدخل في الشؤون الداخلية لمصر الاقلها استطاع والذي عندما فعل ذلك لم يدع للشك مجالاً في أنه خليق بأن يطاع .

وكان في مصر - إلى وزراء ذلك الزمان - شخصيتان يحسب دائماً لهما كل حساب . أولهما شخصية زغلول بطل الاستقلال ومعبود الشعب ومن كان وعناده وغيرته تنمو مع الهتاف باسمه حتى ليحعله ذلك أقل إصغاء لداعى

العقل ، والثانية شخصية السلطان — وفيما بعد الملك — وهذه تخالف تلك كل الاختلاف فهو فطن أكثر مما هو قوى وسياسى أكثر منه متجبرا وقد كان فى مقدوره أن يلعب دور الأوتقراطى ولكن لم تتوفر له القوة التى تجعله ديكتاتورا . أما مقدرته وأثره فليس من سبيل إلى انكارهما . وكانت علاقته بالنبى — فى العادة — حسنة فقد أحب كل منهما الآخر .

وكانت هناك شخصية ثالثة أكثر تحيرا للعقول ولذلك تطلبت من العناية نصيبا أكبر هى الجماهير المصرية . فمصر بلد لا يستطيع الإنسان — ملكا كان أو وزيرا — أن يعتمد فيه طويلا على رأيه العام إذ هو مفاجىء سريع التغير فى حماسه وفى غضبه وإن بلدا ترتفع فيه نسبة الأميين يكون أثر الصحافة فيه ضعيفا إلى حد ما ونادرا ما يكون معتدلا . وتصبح الخطب فى المساجد والهمسات فى القهاوى والإشاعات فى الأسواق الوسائل التى تنتشر بها المعتقدات الشعبية وتثار بها العواطف . ولقد كانت الجماهير المصرية خطيرة فى ثورانها الذى تفاجىء به وفى عنف تطرفها لكنها احتاجت فى العادة إلى قليل من القوة لاختدادها بشرط أن تستعمل بسرعة وبحزم .

ولقد استغل الزعماء الشعبىون — وخاصة زغلول — جماعة الطلبة كسلاح سياسى فبات من السهل تهيجهم بقليل من الخطب المتهبة وبالطبع ألفى هؤلاء مظاهرات الشوارع أكثر تسليمة من ذلك الروتين التعليمى الثقيل وأضحت الاضرابات المدرسية أمرا مألوفا تبعث عليه أئفه المناسبات فيكفى أن يلقى فى لندن أحد الوزراء البريطانيين خطبة لا ترضى التلاميذ حتى يترك هؤلاء مقاعدهم مندفعين إلى الطرقات فى مظاهرات ذات ضوضاء رعجيج وأصبحت مناسبات بعض الحوادث من سنة ١٩١٨ إلى سنوات عدة «الحججه» التى يهملون بها واجباتهم ويفضلون بموجبها الفوضى وبات التعليم والطاعة غير

معروفين لنسبة كبيرة من التلاميذ المصريين .

وثمة تيار آخر في مصر لم يتأثر به اللبني ولو أنه كان خليقا أن يزعم من هو أقل منه إهمالا المنقد هو جزء كبير من الجالية البريطانية موظفين وغير موظفين ومقيمين ومهاجرين . كانوا يهتمون اللبني — بوجه عام — بقلة الحزم في معاملة المصريين ويقولون : « لقد كانت الأمور تسير في الأيام الماضية سيرا حسنا حين لم يكن قد وُجد هذا الكلام في الاستقلال وحين كان المصريون يقومون بما يطلب منهم ويؤمّنذ لم يتطلب الأمر سوى قليل من العزم » . « ولو أعطى المصريون درسا قاسيا لنكصوا على أعقابهم » ، أو « لم يكن يحدث هذا في عهد كرومر » ، وتلك كانت كلمات أولئك الناس . لم يلتفت اللبني لتلك المهمة الاستعمارية يتشدد بها سائح كسلان أو لتلك الشكايات يرددها موظف ناظم بل جعل ينصت باهتمام لمن كانت لهم معرفة حقة وفهم صحيح للبلاد .

وهكذا كانت الحال أمام اللبني وكان الخط التليفوني بين لندن والقاهرة في إحدى طرفيه القاهرة وفي الطرف الآخر شخصيات دوننجستريت والعوامل المكيفة لسياسة الامبراطورية البريطانية في الداخل وفي الخارج . كان لورد كرزون وزير الخارجية ولو أن الخبرة والسرعة في البت والكفاءة والمعرفة كانت وحدها الصفات المطلوبة لما وجدت إدارة الخارجية البريطانية من هو خير منه فهو صائب الحكم — عادة — على الأشياء ، ولكن لأنه فقد قوة الشخصية والعزم الذي يؤيد به وجهة نظره في وجه المعارضة ضاع جانب كبير من عمله . وكانت السياسة البريطانية — في السنوات التي تلت الحرب — عديمة الثبات والاستقرار كما كانت باهتة الأثر ، ولقد وهب كرزون القدرة على معرفة الأخطاء التي سترتكب وانكسبه — على الرغم من عدم إقراره لها — كان يتقهقر في وجهها فترتكب وكانت أمور الوطن تستغرق

الجزء الكبير من وقت الحكومة حتى لم تكن السياسة الخارجية تلقى سوى اليسير من العناية وذلك في الوقت الذي بدا فيه على ثورة إرلندا أنها ستستمر طول الأبد بل ربما ستزداد سوءاً إلى تكرر حوادث الإضراب من العمال علاوة على ما كان لديهم من الارتباكات الخارجية المعقدة بخلاف المسألة المصرية. ثم كانت حالة الشعب البريطاني نفسه بحيث جعلت من العسير انتهاج سياسة قوية في الخارج فلقد أنهك القوم هناك التعب من جراء تلك المغامرات الخارجية وتلك الارتباكات التي كلفتهم كثيراً حتى لقد اشتدت رغبتهم في العودة الى الحالة الطبيعيه بأسرع ما يستطيعون فلأول مرة في حياتها حاربت الأمة كأمة وما أرادت ذلك بل كانت تطمع في العودة سريعاً إلى عملها التقليدي، الى تجارتها. ولما سئل السير هنري ويلسون رئيس أركان حرب الامبراطورية عما يوصى به لتوزيع القوات البريطانية العديدة في الخارج لم يمل من تكرير نصيحته بأن «أخرج من الأماكن التي ليست لك وابق فيما هو لك، وربما لو حظ أن إرلندا وهصر تدخل في هذه الأخيرة.

هذه الصورة السابقة للكيفية التي عولجت بها المشكلة المصرية ناقصة بالضرورة إذ أغفلت هي الكثير بينما يمكن معارضة البعض من تقديراتها. وتلك هي خطوطها البارزة فيها. فحصر وفيها شعب جاهل أمي في أغلبه - يقوده ديماجوجي عنيد - وهذا الشعب يطالب بالاستقلال في غير فهم لما يمكن أن يجره من مسئوليات بينما اتبع المصريون الأكثر اعتدالا - هربا من المسئولية - إملاء الجماهير بدل أن يقودوها - وانجلترا وفيها حكومة ائتلافية من أعضاء غير متوافقين يقودهم رئيس يجهل عن الشعوب الأجنبية والمسائل الخارجية الشيء الكثير، فتقاسمته بذلك مجموعة من المشاكل العويصة داخلية وخارجية، أعطيت من بينها مشكلة مصر أهمية ضئيلة نسبيا، ولكن بالتأكيد

لم يكن لها في نظر مجموع الأمة أهمية ما ، وبين كل هؤلاء وقف النبي . النبي الجندى الذي ألف استلام الأوامر المحددة وتنفيذها بالدقة . أما الآن فقد وجد - بدل الأوامر المحددة - سياسة غامضة لا يسهل دائماً تفسيرها ويستعصى أحياناً تنفيذها .

وبدلاً من أن يصبح قادراً على القيادة أو يدان له بالطاعة اضطر إلى الإقناع كما اضطر إلى التوفيق ، ولقد كانت لديه القوة ليستعملها كعلاج أخير وكان عنده ما يغريه باستعمالها ولكنه أدرك أن القوة ليست هي أبداً الوسيلة التي تحل بها مشكلة العلاقات بين إنجلترا ومصر .

إن من تكلموا - يومئذ أو بعد ذلك - عن سياسة النبي كثيرون . ولكن لم يكن لألنبي وما كان ليكون - سياسة خاصة . لقد كلف بتنفيذ سياسة الحكومة البريطانية وهذا ما أداه - على قدر ما استطاع أن يفسر تلك السياسة - بولائه المعروف . ولكنه أقام لنفسه من جماع ثروته العقلية بضعة مبادئ سيّر على هواها الأمور اليومية بمصر .

فبدأه الأول . لو أن سياستنا المعترف بها الخاصة بتدريب المصريين على حكم أنفسهم - كانت سياسة صادقة أو كانت تعنى في الحقيقة شيئاً لبات من العبث التدخل وأخذ أزمة الأمور لمجرد قيام صعوبة ما ، ولو كان للوزراء والموظفين أن يتعلموا الحكم ، وكان للبوليس أن يصير قادراً على حفظ النظام وكان للجيش المصري أن يغدو في مكنته معاونته عند الحاجة لوجب إذن أن يتعلموا مواجهة مصاعبهم وأخطارهم بأنفسهم - ولوجب ألا يعتمدوا على البريطانيين حين يقع ما يخل بالنظام أو ما يثير الفزع . وهذه الفقرات المقتطفة من رسائل النبي لأمه - وكان يكتب إليها من مصر مرة كل أسبوع أو كل عشرة أيام حتى توفيت سنة ١٩٢٢ - تدل على مراعاته لهذه القاعدة

٦٠ أبريل سنة ١٩٢١ - وصل القاهرة أمس سعد زغول - فسحبت كل الضباط والجنود من الشوارع تاركا للمصريين الأمر - ولقد احتشدت الجماهير المتحمسة ولكن كان النظام يشملها حتى لم تقع حادثة واحدة .

وفي ٢٠ مايو سنة ١٩٢١ - بعد حدوث بعض الاضطرابات « انتظر أحسن الفرص إذ أرجو أن يقوم المصريون بسياسة أنفسهم ولست أبغي التدخل إلا أن تعرضت حياة الأوربيين أو مصالحهم للخطر . ولقد كانت لهذه القاعده - بالنسبة لانفجارات الجماهير المصرية خاصة - أخطارها الواضحة فقد انتقد أُلنبي في مناسبات عدة وعلى الأخص بعد ما وقع في الإسكندرية من حوادث الشغب التي سببت فقد حياة الكثيرين بأنه لم يسبق بحمل التبعة قبل ذلك بوقت كاف ، إلا أن قاعدته هذه كانت سليمة ولو أنها تستلزم رجلا شجاعا ليواجه ما يمكن أن تبعثه من أخطار . وكان مبدأه الثاني : عدم المساومة أبدا في المسائل السياسية . وفي ذلك كان حكيما أيضا . فالمساومة تلازم الأضعف بينما العزم الكريم شأن الأقوى ولما بات من الضروري أو من المستحسن أن يتساهل مع المصريين بعض التساهل كان رأيه أن يتم ذلك في الحال وبحرية ودون محاولة للظفر بمزية في مقابل ذلك . وكانت عقيدته هـذه أساس العمل الذي حصل به على تصريح سنة ١٩٢٢ .

وكان مبدأه الثالث : اعتقاد راسخ فيه بأن مركزنا في مصر إنما يعتمد تماما على قوتنا البحرية في البحر الأبيض . فطالما احتفظنا بها وسعنا إعطاء والمصريين كل المنح المعقولة إذ يصبح في أيدينا السيادة على مصر ما دامت لنا السيادة على البحر الأبيض . فاذا فقدنا هذه السيادة أصبحت الحقوق التي يطالب المصريون بها عديمة الجدوى .

وأعظم ثناء وجه لآل النبي علي حسن صنيعه ما سجله رجل وافر العلم بمصر
والمصريين — هارى بويل — من أكثر من وثق بهم كرومر من معاونه —
وقد جاء الى مصر فى ربيع سنة ١٩٢٢ لتمضية إجازته فى الظاهر ، ومبعوثا من
وزارة الخارجية — من غير شك — ليكتب لها تقريرا غير رسمى عما كان
يصلها من نقد كثير لآل النبي . ولو أنه أرسل ليلعن إلا أنه بقى لبيارك كما تدل
على ذلك المقتطفات الآتية من يومياته :

« كان لى حظ الاطلاع على جانب كبير من جوانب آل النبي . الرجل الذى
أعجبت به كثيرا . إن مركزه فى مصر لمن أصعب المرا كز إذ ينطوى على
الكثير من المسائل التى لم يسبق له كجندى أن يعالجها . ولقد وافقت مدة
خدمته أنشط فترة فى تاريخ الحركة الزغولية ولكن على الرغم من ذلك فقد
تصرف بنجاح غير مألوف ولست أتردد فى القول بأن جانبا كبيرا من
نجاحه إنما يعود إلى مافيه من مشابهة للوزد كرومر سواء فى جسمه أو فى
خلقه .

« إن آل النبي هو وحده الشئ الطيب الفريد الذى أستطيع العثور عليه فى
هذا الأفق . »

« يزداد حبي لآل النبي يوما عن يوم فهو زميل لطيف وخير من يصلح للظروف
الراهنة . كم تمتلأنى غضبا هذه المؤامرات التى تدبر له هنا وفى لندن . »
ولقد وجد آل النبي مرءوسوه الدبلوماسيون كما تمنوه أن يكون وسرعان
ما أحبوه وأعجبوا به ، وإن كانوا قد توقعوه جنديا خشنا جافيا لاحظ له
من العلم بالأدب ولا مهارة عنده فى قول أو فى كتابة فلقد أدر كوا خطأهم أسرع
مما ظنوا . فكتب أحدهم عنه يقول « لقد كتب أمس مذكرة مختصرة اطلعت
عليها من أعمل معهم ، ودهش واحد آخر — وكان يقدم لآل النبي مسودة

رسالة فيها إستشهاد مترجم لأحد كبار المسرحين القدامى من اليونان — حين
سمع النبي يقول عند قراءتها ، إن أردنا الاستشهاد بأسكيلوس فليكن ذلك
باليونانية القديمة نفسها ، ثم تلا النبي النص اليونانى .

ولقد ألهب النبي كل رجاله — فى وقت من الأوقات — بسوط غضبه
وبقسوة لسانه . لكنهم عرفوا جميعا قصر هذه النبوات ومضيها من غير أن
تترك وراءها أثرا أو ذكرى . ولقد قدروا فيه جميعا سرعته فى فهم الضرورى
من المشاكل كما قدروا فيه قوة تصميمه وولائه التام لمن خدموه ويدل على
ذلك أنه أمر بتسجيل كل نصيحة خاصة قدمها مرءوس فى الدفاتر الرسمية ثم
لم تنفذ ذلك إن ثبت بعدئذ صوابه . ومن ناحية أخرى عرف النبي بسرعة
كيف يقدر صفات مرءوسيه حتى لم يكن ينظر إليهم أو يخاطبهم كما لو كان
يخاطب ، جماعة من الضعفاء ذوى المعاطف السوداء ، أى جماعة من الكتبة
الخائعين . ولم يعمل أبدا موظفو دار المعتمد كفريق ، لا بولاء أشد ولا
بانسجام أتم مما عملوا تحت قيادة النبي .

ودار المعتمد فى مصر — حيث أمضى النبي أكثر من ست سنوات —
بنا على ضفة النيل بديع ، تمتد حوله حديقة جميلة تبلغ النهر العظيم إذ تسمح
مياهه وطميه بالنمو لجميع النباتات ، وكثيرا ما أنفق النبي فى هذه الحديقة من
وقته الجزء الكبير بل كان يسعده أن يريها للزائرين وكان يسرهم منه ذلك لو لم
يخالط سرورهم خوف — هم على حق فيه — من بجمعة كبيرة اعتادت أن تتبع
النبي أينما يسير وتغار عليه من تراه بصحبته من الأطفال والنساء ، وقد حدث
لهذه البجمعة نفسها أن روعها مرة أسدان هاربان — جرى بهما إلى النبي ليراهما
قبل أن يرسلا إلى حديقة الحيوان — حين طفقا يطاردانها فى أرجاء الحديقة
ولم تبعد حديقة الحيوان هذه إذ كانت على ضفة النيل الأخرى فجعل النبي

يكثر من زيارتها لما يجده في ذلك من متعة ولما كان يحصل عليه من زيادة في معلوماته السابقة عن الحيوانات والطيور . وكان يشمل بحبه الحيوانات كلها إلا الكلاب فما أحبها وما اقتناها . لم يتظاهر أللنبي بمركزه أبداً بل كان يسير في القاهرة دون حرس ودون احتفال . اللهم إلا ياوره . حتى أواخر أيامه حين أمر رسمياً ألا يخرج إلا وفي وصحبه الحراس .

وما زال أللنبي يمتطي الخيل وإن كان أقل من عادته اذا اقتطعت واجباته الرسمية كثيراً من وقته . وفي الشتاء كان يصيد البط الذي يزور الدلتا المصرية في أفواج هائلة ، وفي الصيف عند ما تنتقل الحكومة إلى الاسكندرية كان يستحم بانتظام حتى كاد مرة — في يولية ١٩٢٠ — أن يفقد حياته في البحر . فلما كان اليوم عصيباً وقد توغل أللنبي — وهو السباح القدير — داخل البحر . فلما أراد الرجوع أحس بصعوبة عظمى فجعل يغالب حتى انفجر أحد شرايينه وبذلك أنهك قلبه ورتتيه واضطر أن يلزم بعدها الفراش أسبوعين — ولو غيره أقل منه عزيمة لكان من المحتمل أن يطويه البحر في مياهه .

وكان يقيم في دار المعتمد كثير من حفلات الاستقبال خاصة ورسمية ، ولقد ندر أن مر بها يوم لم تقم فيه حفلة غداء أو عشاء . وكان أللنبي وزوجته مضيفين رائعين من كل الوجوه حتى إن أقوى الحفلات صبغة رسمية كان يحيطها جو من روح الصداقة والسخامة وتبين القصة التالية عطف أللنبي وظرفه كمضيف فقد حدث أن أمر ضابط كبير في فلسطين — كان على وشك القيام بزيارة لمصر — أحد مرءوسيه بأن يرسل برقية إلى القائد العام في القاهرة . وكان صديقاً حميماً له . بأنه آت لتمضية الليلة معه وقال له : أخبره بأني سأصل متأخراً ولكن لا عليه من ضجر بشأن عشائي بل حسبه أن يضع قليلاً من الشمبانيا وبعض شطائر الكبد في حجرتي ، ثم أرسلت هذه البرقية خطأ إلى

دار المعتمد بدل أن ترسل إلى القائد العام ، فلما وصل الضابط إلى القاهرة دهش إذ وجد ياور المعتمد البريطاني في انتظاره بالمحطة ويقول له إن برقيته وصلت وإن المعتمد البريطاني يأسف لتناوله العشاء في الخارج ولكن الحجره معدة له . ولم يضجر كل ذلك الضابط بسهولة ، إلا حين وجد الشمبانيا وشطائر الكبد في حجرته إذ أدرك أنه في حاجة الى شيء من الايضاح . ولما أصبح الصباح وقابل مضيفه بادره بالاعتذار عن « الغلطة الشنيعة » التي وقعت منه أمس فرد عليه النبي : « أي غلطة . أو ليست الشطائر من الصنف المطلوب ، ثم أبي النبي أن يستمع منه لكلمة اعتذار أو إيضاح قائلاً « إنه مسرور لرؤيته وتمكنه من تقديم العشاء الذي تعودته » .

وكذلك كان أثر ليدى النبي في دائرتها ملحوظاً كأثر النبي في دائرته ، وكانت تخفي وراء تصرفها الرقيق وجاذبيتها شخصية قوية وخلقاً صارماً كخلقها وكانت أقل تأثراً بالعواطف وأكثر واقعية وإدراكاً من معظم النساء . وهي دقيقة المحافظة على مواعيدها لا تتعجل الأمور قط ، كما كانت تسمو على التآمر وترفع عن القيل والقال ، جمه الهدوء والوقار لا تتغير بتغير الأحوال . كانت امرأة عظيمة ، وكانت خير من يكمل عظمة النبي .

الفصل الثالث

لجنة ملنر

ديسمبر سنة ١٩٢١

مايو سنة ١٩١٩

الحكومة في خير صورها شيء ناقص ، فالأفضل
أن يختار الشعب النظام الذي يعجبه ، أولى من أن
يفرض عليه نظام - وإن كان أفضل منه - لا يحبه .
لورد ملنر

اقترحت الحكومة في أول إبريل - بعد تعيين اللنبي - إرسال لجنة
تحقيق برئاسة لورد ملنر وأفهمت اللنبي أنها فعلت ذلك تكملة لاقتراحه الافراج
عن زغلول وصحبه . ولكن رفض اللنبي أن يثنيه عن عزمه حتى رجل مشهور
كاللورد ملنر وإن وافق على أنه ربما يكون لتلك الزيارة فائدة في المستقبل .

ولجنة التحقيق هذه هي الوسيلة المحببة لدى الحكومة البريطانية لحل المشاكل
المعقدة سواء في الداخل أو في الخارج . وإن لها لمزايا واضحة . فهي تؤجل
على الأقل مدة ما ضرورة الانتهاء إلى قرار غير مرغوب فيه وقد أتاحت لهم
لجنة ملنر والمفاوضات التي أعقبتها فعلا فرصة للتنفس دامت أكثر من عامين
وهي كذلك تقدم لعدد من الموظفين الممتازين حاليين وسابقين عملا مسليا
يشغلون به وقتهم ؛ فوق ما تتركه من تقارير كثيرة جدية غالبا بالقراءة لما
تزخر به من معلومات قيمة وإحصاءات منظمة ؛ ثم هي أخيرا توحى بالأمل
دائما في أن تنجلي أعمالها عن حل عملي مقبول للمشكلة .

وكان على لجنة ملنر — لكي يعظم أثرها — أن تصل مصر في مايو أى في فترة الهدوء التي تلت إعادة النظام . ولكن كان ملنر — وهو عضو بالوزارة جم المشاغل متعددة ، ولم يكن من السهل العثور على أعضاء أكفاء في مثل هذه الفترة القصيرة وخاصة وهناك قاعدة مسلم بها في مثل هذه اللجان هي أنه كلما كانت المشكلة صعبة كلما كان ذلك أدعى إلى زيادة الاعضاء — ولم يكن الفصل الحار في مصر أنسب الأوقات للعمل المنتج . وهكذا تأجل وصول البعثة حتى الخريف بل لقد تأجل حتى الشتاء ، وفي هذه الأثناء كان معارضو اللجنة قد تمكنوا من تنظيم معارضتها وتدعيمها .

وقام ألنبي في نفس الوقت باجازهه إلى إنجلترا ولم يكن زارها منذ أكثر من عامين ، لقد غادرها في يونيه سنة ١٩١٧ رجلا غير معروف تقريرا بيومذاك وخائب الأمل الى حد ما ونقل بعد ذلك الى ميدان ثانوى بعد فشله في آراس كما اعتقد الكثيرون ثم هاهو اليوم يجيئها وقد غدا رجلا ذائع الصيت وافته مظاهر التكريم من كل ناحية ، فأثنى عليه مجلسا البرلمان ، وأنعم عليه بلقب « فيكونت » وأعطى . ٥٠ ألف جنيه هبة وحظى بلقب اللورد — وقد أحزنه ذلك جدا إذ جاءه الإنعام في نفس اليوم الذي كان ابنه ميخائيل سيبلغ فيه الحادية والعشرين . ثم رقى في صيف سنة ١٩١٩ إلى رتبة فيلد مارشال وعين في سنة ١٩٢٠ كولونيل في فرقة — « حرس الحياة » فخوله ذلك حمل «العصا الذهبية » . إلى جانب ما منحه له الدول الحليفة التي حاربت ألمانيا — الولايات المتحدة ، فرنسا ، إيطاليا ، بلجيكا ، رومانيا ، اليونان ، مصر والصين ، اليابان ، والحجاز — من أوسمتها .

ولشخص الذي ينعم عليه بأحد ألقاب التشريف — « إيرل ، فيكونت ،

بارون ، مار كيز ، أن يختار لنفسه موصفا أو مواضع يشتق منها لقبه ، فاختار
أللبي لنفسه « مجدو » ، حيث نال هناك أعظم نصر له ، و « فليكستو » وكانت
لا تزال مسكن أمه . واختار للرمز الذي يلبسه « حصانا » يمثل به سلاح
الفرسان الذي ينتمى إليه ويدين له — كثيرا بانتصاراته ، و « جملا » ليسجل
به الدور الذي أداه ذلك الحيوان النافع المكروه في حملات فلسطين . ولسوف
يصعب في المستقبل على أي جنرال بريطاني أن يختار لنفسه رموزا مماثلة ،
لأن الدبابة أو سيارة النقل لن يلقيا قبولا من « كلية الأسلحة » .

ولقد وهبه كثير من المؤسسات والنقابات والجمعيات التي كان من غرضها
السلام ألقاب التشريف للنجاح الذي أصابه في الحرب ، كذلك منحته عدة
جامعات درجاتها كأ كسفورد وكمبردج وأدنبرة وييل ، وأنعمت عليه نقابات
مدينة لندن القديمة — مثل الصاغة وتجار الأسماك والبقالين — بلقب « رجل
حر » ، بل لقد أطلق اسمه على جواد سباق — لم يكسب هذا الجواد في سباق
الدربي — وعينته عدة من الأندية عضوا بها مدى الحياة . ولعل أعجب تكريم ناله
كان عضوية ناد من أكثر أندية الكريكت تحفظا . زنجارى . وكانت مبادؤه
الثلاثة : إحفظ وعدك . إحفظ اترانك . إحفظ هدفك . وقد استطاع اللبي
أن يفي بالمبدأين الأول والأخير . بل لقد اتبعهما طول حياته .

ولقد أعطى الشرف المدني المتوج وهو « حرية مدينة لندن » الذي يعادل
في قيمته « النصر الروماني » لخمس من قواد الحرب هم جليلكو وبياتي وفرنش
وهيج وأللبي . وأقيم احتفال الإنعام على أللبي في ١٧ أكتوبر سنة ١٩١٧
حينما استقبل في قاعة « الجلد هول » ثم أهديت له « الحرية » و « سيف الشرف »
ودعى بعد ذلك إلى حفلة غداء في « مانسيون هوس » وقبل ذلك بأسبوع أو

بأسبوعين كان ألنبي قد استقبل استقبالا عائلياً في فليكستو يوم ذهب لزيارة أمه وكان سنها إذ ذاك ٨٨ عاماً .

ثم رجع ألنبي إلى مصر في نوفمبر فأنق الحياة السياسية قد ساءت في غيبته ووجد عهد الهدوء قد ولى .

فلقد نظم زغلول — ولم يزل بباريس — عن طريق أنصاره في مصر معارضة لبعثة ملنر بغية مقاطعتها ، وقدم رئيس الوزراء محمد سعيد استقالته بحجة أنه يجب تأجيل البعثة حتى تعقد معاهدة السلام مع تركيا . وإذن أصبح لامناص من إيجاد خلف له . ثم وصلت البعثة في أوائل ديسمبر . وقد قصد بأعضائها البارزين أن يكونوا ممن يميلون لمصر . وكانوا وبقية أعضائها الآخرين — عدا ملنر — سير رنيل رود Renell Rodd الذي خدم في مصر أيام كرومر وجنرال سير جون ماكسويل Gén. Sir. John Maxwell الذي قضى عدة سنوات في خدمة الجيش المصرى وكان فيها شخصية محبوبة من المصريين ، ومستر هرست Hurst المستشار الأول بوزارة الخارجية ومستر سبندر Spender من بين الأحرار الممتازين وكان مدير التحرير وستمنستر جازيت Westminister Gazette وجنرال سير أوين توماس Gen. Sir Owen Thomas وكان من حزب العمال . لكن كان للبعثة عيبان — في نظر المصريين — خطيران . فأولا تضمن نص تعيينها إبقاء الحماية على مصر وثانياً على الرغم من أنها هيئة إنجليزية محضة إلا أنها اقترحت طلب دستور لمصر ، وهذا أمر كان المصريون يعدون أنفسهم أهلاً له تماماً ثم هو شيء يعنيههم هم أكثر مما يعنى غيرهم . وكذلك نجحت مقاطعة المصريين للجنة فغادرت مصر بعد ذلك بثلاثة أشهر من غير أن تتصل بالرأى العام المصرى أى اتصال مباشر إلا أن يكون ذلك عن طريق صياح

الجمهير العدائي لها . ولكن على الرغم من ذلك كان لها بعض اتصالات عامة من وراء الستار .

ولقد أنفق النبي الستة أسابيع الأولى من سنة ١٩٢٠ ومعه لادى النبي في رحلة قام بها في السودان وذلك - في الغالب - ليكون الميدان خاليا في وجه البعثة . وبدأ النبي بزياره الملك حسين في جده وهو الذي طالما تمنى أن « يقبل النبي في جبينه الذكي » والمملك حسين كحاكم رجل صعب غير معقول لكنه عظيم الحفاوة جذاب في إضافته . أهدى لالنبي سيف شرف ودعاه إلى مأدبة عربية تقليدية تدعى « السماط » لاتقام إلا في المناسبات الخاصة وفي العادة حينما يحتفى بزيارة واحد من الفاتحين . وراح العبيد يسرون بأصناف الطعام على طول المائدة خدمة للضيوف الذي كان فيهم أكثر من مائتين من رؤساء القبائل من نواحي الحجاز المختلفة ، ثم غادر النبي جده متجهاً إلى بورتسودان وسواكن وعطبرة والخرطوم ومن هناك ركب النهر إلى الجنوب حتى بلغ بحيرة نو في مديرية بحر الغزال فلما عاد زار مديرتي كسلا ودنقله حتى إذا وصل كوروسكو - شمال وادي حلفا تماماً - وجد هناك حطام طائرة كانت تقوم برحلة في إحدى المخاطر المبكرة التي وضعت أساس الطرق الجوية الطويلة المدى في أنحاء العالم في السنوات التي أعقبت الحرب وكان طياروها من جنوب أفريقيا بيير فان راينفالد Pierre Van Reyneveld وكيونتن براند Quintin Brand ولقد بلغا كورسكو من لندن في سبعة أيام - الأمر الذي يعتبر في يومها رقماً سياسياً - فاصطحب النبي الطيارين معه على ظهر باخرته لكنهما ما كادا يعودان إلى مصر حتى جددا محاولتهما بطائرة أخرى للوصول إلى جنوب إفريقيا ولقد تم لها ذلك بعد حادثه في روديسيا وبذلك كانا أول من أتم رحلة جوية من إنجلترا إلى الكاب .

وعاد ملنر ببعثته إلى إنجلترا في مارس سنة ١٩٢٠. ولو أن المعتدلين من المصريين والمسؤولين منهم لم يجدوا في أنفسهم الشجاعة التي يخرجون بها على تلك المقاطعة إلا أنهم أدركوا الآن أنه من المستحسن الاتصال باللجنة قبل أن تكتب تقريرها ثم اقنعوا زغلول — بعد مفاوضات عدة تصون الكرامة بالسفر معهم إلى إنجلترا ليفتح باب المناقشة مع البعثة في آخر مايو.

ثم قدم ملنر — في أوائل أغسطس وبعد مفاوضات شاقة طويلة — مشروعا يحقق الى درجة بعيدة أمانى المصريين إذ كانت ستستبدل الحماية فيه بمعاهدة تعطى الاستقلال لمصر مع تقييده ببعض تحفظات خاصة بمصالح البريطانيين. ولقد نصح أللبي بقوة — وكان يومها في إجازة بإنجلترا في أغسطس — بأن يقدم المشروع في الحال إلى مجلس الوزراء وأن يعلن في حالة إقرارهم له كحل من جانب حكومة صاحب الجلالة. وبأن لا يسمح بنشر نصوص ذلك المشروع بحال ما قبل أن يدرسها مجلس الوزراء، ولكن لم يؤخذ بنصيحة أللبي أو لعلها وصلت متأخرة. إذ قدم ملنر — في اندفاع عجيب من دبلوماسى محنك مثله — مذكرة بمقترحاته لزغلول من غير أن يحصل منه على أية موافقة عليها أو حتى دون أن يتعهد له زغلول بتأييدها.

بل لقد راح زغلول — لخوفه من فقدان تأييد الجماهير المتقلبة — يصرح بأن الأمة المصرية يجب أن توافق على تلك المقترحات، وهي نفسها الأمة التي طالما نادى بأنه وحده ممثلها الذي تثق به، وسمح له بإرسال بعض زملائه إلى مصر ليحس بهم نبض الرأى العام هناك وطبعاً أعلنوا لهم نصوص المقترحات وكانت النتيجة أن نظر المصريون إليها — كما سبق أن توقع أللبي — على أنها أدنى عرض قدمته بريطانيا، وأصبح عبثاً بعد ذلك كل ما أعلنه كرزون من أن تلك الموافقة إنما كانت اقتراحاً فقط اقترحته بعثة ملنر وأنه ليس من

الضرورى أن توافق عليها الحكومة البريطانية ، ولكن ملنر — العضو فى الوزارة — كان فى نظر المصريين ممثلاً تام السلطات للحكومة البريطانية فى المفاوضات . وهذا فقد أصبح كل قول يخالف ذلك دليلاً عندهم على سوء نية البريطانيين وإذن كان لكره اللبى لطريقة المساومة فى المعاهدات ما يبرره .

وحى بعد ذلك كان من المحتمل أن تتم الموافقة على تلك المقترحات ، لو أن زغلول أبدى ما يدل على زعامته ، إلا أنه برفضه التدخل سواء بتأييد المشروع أو برفضه ترك أنصاره فى حيرة من أمرهم بينما أعطى لخصومه الفرصة التى يرجونها . وبعد مناقشات طويلة غير مثمرة قدمت اللجنة تقريرها ، ثم تقرر فتح باب المفاوضات على أساس مقترحاتها مع وفد رسمى من مصر . وكان ذلك فى سنة ١٩٢١ بعد انقضاء عامين تقريباً على الاضطرابات التى عينت البعثة لتحقيقها وبعد عام على زيارتها لمصر . ولكن كان لابد من تأخير آخر ، إذ أن مفاوضات تأليف الوفد كانت طويلة ملتوية . فالسلطان فؤاد ، وعدلى رئيس الوزراء ، ومعبود الشعب زغلول كل منهم أراد أن يكون له الصوت الأعلى فى تكوينها .

ولما كان زغلول قلقاً على مكانته وغيوراً من ازدياد نفوذ عدلى كرجل معتدل فقد أبرق من باريس فى مارس سنة ١٩٢٠ قائلاً إنه مستعد لتأييد وزارة عدلى بشرط أن تلغى الأحكام العرفية والرقابة وأن يرأس هو وفد المفاوضات الرسمى الذى يجب أن يضم أغلبية من أنصاره . ثم أسرع بعدئذ بوضع خطط عودته إلى القاهرة حيث وصل فى ٥ إبريل . ولقد أظهر عدلى نحوه كل ما يثبت به صداقته فذهب بنفسه إلى المحطة لتحيته كما لم يتخذ أى إجراء من شأنه أن يحول بين الأمة وبين إظهار أحر تحياتها لزعيمها الوطنى . وكانت رحلته على طول السكة الحديد من الاسكندرية إلى القاهرة

فوزاً باهراً . ثم امتازت بالمناظر الرائعة عند ما وصل العاصمة . وغدا اليوم بطبيعته عطلة وطنية غادرت فيه النساء خدورها — مما لم يحدث قبل ذلك — ليشاركن في استقبال من أعظم الاستقبالات التي قوبل بها مواطن في أى بلد من بلاد العالم ، ولا بد أن يكون عدد الذين احتشدوا في المسافة القصيرة نسبياً بين محطة السكة الحديد وبين منزل زغول نحواً من ٤٠٠٠٠٠ من الأشخاص على الأقل . ولقد امتلاء الطريق بالعربات التي ترفرف فوقها الأعلام . وسعف النخيل ، وبالمركبات من كل صنف غطيت بالأزهار وعليها الفتيات يرقصن وبالموسيقى الشعبية من كل لون ، وبالجمال والحير ، حتى تألف من كل ذلك مشهد رائع عجيب .

لم يطل الوقت كثيراً حتى دب النزاع بين زغول وعدلى فقد بين زغول بعد وصوله بثلاثة أسابيع في إحدى خطبه أن التعاون بينه وبين عدلى إنما يتوقف على الموافقة التامة على شروطه . وأعلن عدلى في نفس الوقت أن زغول يؤيد الحكومة إلا فيما يختص برئاسة وفد المفاوضات ثم أكد أنه يجب أن يكون رئيس الوزارة هو رئيس الوفد الرسمي حسب السوابق . وبدأ زغول يفقد مكانته فأعلن خمسة من وفده ثقتهم بعدلى وأخذ زغول يشدد في حملته على عدلى كلها أحس بتضاؤل نفوذه حتى كانت نتيجة ذلك المباشرة أن حدثت في مايو اضطرابات خطيرة في الإسكندرية مات فيها عدد كبير . وكان القتلى من المصريين ثلاثين ، وقتلى الأوربيين أربعة عشر ، وكان الجرحى من المصريين مائة وثلاثين بينما كان كان جرحى الأوربيين تسعة وستين .

وانتقد ألنبي لسماحه لزغول بالعودة ، ولعدم اتخاذه الاجراءات الرادعة الكفيلة بمنع حوادث الإسكندرية أو بقمعها في الوقت المناسب . لقد كان

جليا أن عودة زغلول إجراء خطير قد يعكر صفو السلام ، ولكن كان من الصعب أن يرفض السماح بالعودة إلى مصر لشخص سمح له بالمفاوضة في إنجلترا ولشخص كان عدلى نفسه في مفاوضات معه لتأليف وفد مشترك .

كانت اضطرابات الاسكندرية استمرارا لحادثة وقعت في طنطا في أواخر إبريل حين أطلق البوليس النار على جمهور عنيد خطر ، فقتل ثلاثة وجرح آخرين . ولقد نصح ألنبي في حينها بأن يقف البوليس موقفا حاسما إزاء هياج الجماهير ولكن وافق عدلى وهو الضعيف دائما في وقت الشدة على القيام بتجقيق مع البوليس حملهم فيه شيئا من المسؤولية ، وبذلك أضعف من روحهم المعنوية ولم يعد في مقدوره أن يطلق النار في الحالة الشبيهة بتلك والتي وقعت في الاسكندرية فلو اتبعت نصيحة ألنبي في حادث طنطا لما وقعت أبدا اضطرابات الإسكندرية . أما رغبته في عدم التدخل فورا بالجيش البريطاني فكانت اتباعا منه لسياسته وهي أنه إذا كان المصريون أهلا للاستقلال فعليهم وحدهم أن يجمعوا اضطراباتهم .

وفي النهاية سافر الوفد الرسمي برئاسة عدلى إلى لندن في أول يولييه . ولم يكن يتوقع ألنبي لهذه المفاوضات بين كرزون و عدلى من النجاح أكثر من الذى توقعه لمفاوضات ملنر - زغلول وهذا ما حذر منه مرارا وزارة الخارجية البريطانية كل تلك الشهور . إذ لم يجد عدلى - إزاء زغلول الذى مازالت له السيطرة على آراء الجماهير - في نفسه من الشجاعة ما ينسحب به من الموقف الذى سبق أن اتخذ زغلول مع ملنر . ومن هنا استمرت المفاوضات - التى كان يجب أن تنتهى في ظرف خمسة أسابيع أو ست - من يولييه إلى نوفمبر وكانت مسألة إقامة القوات البريطانية في مصر هى العقبة الكيؤود ، فلم تستطع صيغة من صيغ المتفاوضين تذليلها .

وهذا الجو السياسي في غيبة عدلي هدماً معقولاً رغم ما كان يشيره
زغلول من هياج ورغم زيارة أربعة من حزب العمال بدعوة من زغلول صرحت
لهم بها الحكومة البريطانية ضد معارضة دار المعتمد البريطاني، ورأس ثروت
الوزارة بالنيابة عن عدلي مدة غيابه ونجح في ذلك نجاحاً كبيراً، ولقد كانت
الأغلبية من المصريين صادقة الرغبة في الوصول إلى الاتفاق وفي الهدوء،
وكان زغلول قد ارتكب أخطاء جساماً أفقدته كثيراً من منزلته لولا خيبة
الأمم التي سببها فشل المفاوضات وما أحدثته المذكرة الشديدة المهجة التي
أمر اللني بتقديمها للسلطان من أثر سيء، فاستقال عدلي بعد ذلك بقليل،
وزاد الغضب الشديد الذي أثارته في مصر تلك المذكرة من صعوبة الوصول
إلى تأليف وزارة جديدة. وهكذا إنهار هذا المركز السياسي القوي الذي
اكتسبه عدلي في مصر لنفسه وللعتدين معه وارتفع زغلول مرة أخرى من
أطلال حماقاته كما يرتفع الطائر الخرافي، لقد كان سروره بفشل مفاوضات
عدلي جليلاً لا يخفى على أحد وليست هذه منه بالنظرة الوطنية بل كانت منه
نظرة شخصية

ولقد حل الوقت الذي استعد فيه ثروت أن يقبل الحكم على أساس
برنامج وافقت عليه وزارة الخارجية لولا أن ضيع الفرصة منه ما أثاره
زغلول من هياج، وأصبح الموقف في منتصف ديسمبر بحيث لا يمكن معه
إقناع أي وزير بتكوين حكومة تدير الأمور في مصر، وبذلك أوجدت
لأللني محاولة المساومة للوصول إلى معاهدة مازقا وترك له أن يتخلص منه

ثم وقع في القاهرة أثناء ذلك ما أخل بالنظام فقرّر اللني - بناء على نصيحة
موظفين مسئولين خشوا خطورة القلاقل واتساعها - أن يمنع اجتماعاً طلبه

زغلول - المهيج الاول - في ٢٢ ديسمبر ورد زغلول على ذلك المنع ببيان وجهه الى الأمة .

والآن كان النبي قد أدرك أنه مامن سبيل الى التخلص من مأزق العلاقات الانجليزية - المصرية طالما بقي زغلول والمحيطون به في مصر - فقرر لذلك أن يتخذ خطوة جريئة فأمر باعتقال زغلول وخمسة من رفاقه في ٢٣ ديسمبر ونقل الجميع تحت الحراسة الحربية إلى السويس في طريقهم إلى المنفى - وقد دعا الضباط البريطانيون المعسكرون بالسويس زغلول إلى حفلة عيد الميلاد في ٢٥ ديسمبر ، وفي ٣٠ ديسمبر غادر مصر إلى عدن حيث ظل الى أول مارس سنة ١٩٢٢ ومن ثم نقل إلى جزائر سيشل - ولقد خيف أن تنفجر مصر من تصرف النبي هذا الشديد فيحدث فيها مرة أخرى ما يقرب النظام بصورة هائلة . وكان هذا رأى الكثيرين إلا أن النبي لم يشاطرهم رأيهم فقد صمم كل التصميم على أن يجمع بشدة كل محاولة للإخلال بالنظام ووزعت قوات عظيمة في شوارع القاهرة قمت بها المظاهرات في الحال وأرسلت المراكب الحربية إلى السويس والاسماعيلية والاسكندرية في الوقت الذي أخذت الوحدات البحرية تدرع فيه النيل ، ومن غير شك لم ينس أهالي الاسكندرية درس مايو الماضي إذ أظروا ميلا قليلا لإثارة القلاقل ، وسرعان ما فهم منظمو السوء أن فرصة القيام باضطرابات واسعة النطاق ضيقة أمامهم

وشكراً لإجراءات النبي الصارمة . لقد عاد الهدوء في آخر ديسمبر وانتهى الإخلال بالنظام ، فعاد كل موظفي الحكومة إلى أعمالهم بعد إضراب قصير قاموا به حفظاً لكرامتهم ، ورجع التلاميذ - وكانوا لا يزالون مضربين - إلى مدارسهم بعد تهديدهم بالفصل النهائي ، وقرر المحامون وقف الإضراب

مستعملين ذلك بلبس الحداد مدة شهرين ، ثم عادت مصالح الحكومة إلى العمل بحالتها الطبيعية

ولكن لم يكن كل ذلك ليغني أن مصر قد عادت إلى أى استقرار سياسى .
نعم عاد النظام بإجراءات حرية شديدة ولكن بقيت نفس المشاكل الأساسية أمام أللنى ليحلها . فما زالت البلاد بغير وزارة بل لا أمل هناك فى قيامها حتى يوجد طريق للخروج من ذلك المأزق . وبذلك اضطر أللنى فى ٢٨ ديسمبر أن يصدر قرارا يخول به وكلاء الوزارات - وكاتوا كلهم - إلا واحداً من الانجليز - وظيفة الوزراء وسلطتهم فى المسائل الادارية إلى أن تتألف الوزارة الجديدة . ولكن كان من المستحيل على وكلاء الوزارات الانجليز أن يديروا شؤون الحكومة فى البلاد إلى جانب موظفين مصريين معادين لهم . لقد تحتم إذن على أللنى أن يوجد لنفسه مخرجاً يتخلص به من ذلك المأزق .

الفصل الرابع

تصريح ١٩٢٢

طمئنا نفوسكم أيها السادة فسأنتهي هذا الصراع
شكسبير

كان تصريح حكومة الملك في فبراير سنة ١٩٢٢ - وهو الذي الغيت به الحماية على مصر - وأعلنت فيه مصر دولة مستقلة ذات سيادة الحد الفاصل الملحوظ في تاريخ العلاقات بين بريطانيا ومصر وهو أعظم عمل قدمه أللنبي في تاريخه السياسي .

ولقد انتقد منه هذا العمل وأسئ فهمه بل لقد قدم للناس مشوها ولذلك وجب أن تدرس أعمال أللنبي ودوافعه في ديسمبر سنة ١٩٢١ وفي الشهرين الأولين من سنة ١٩٢٢ دراسة كاملة ما استطعنا ذلك إذ هي جزء أساسي من ترجمته .

لقد حذر أللنبي الحكومة البريطانية أكثر من مرة خلال سنة ١٩٢١ لتتخذ العدة التي تواجهها فشل المفاوضات . ولم يخف أللنبي كذلك رأيه الخاص في أن تلك السياسة يجب أن تتضمن إلغاء الحماية . ولقد انتهى أللنبي الان بعد سنتين من المساومات إلى أن الوقت قد حان ليرغم الحكومة البريطانية على الاعتراف بحقائق الموقف فقد ترك لينفذ سياسة لا يمكن تنفيذها وهماهي مصر الآن بغير وزارة والآلة الحكومة فيها معطلة تماما بينما انتهى زمن التعاون مع المصريين ، ذلك التعاون الذي تأسس عليه الحكم البريطاني في عهد كرومر وفيما تلاه من عهود .

وتوصل أُلنبي في الإِسبوع الأخير من سنة ١٩٢١ والأسبوع الأول من سنة ١٩٢٢ بطريق أحد مرءوسيه إلى الحصول على الشروط التي يستطيع بها الحزب المعتدل ورئيساه عدلى وثروت التعهد بتأليف الوزارة. ثم تم الاتفاق على الصيغة في ١٢ يناير وأعطى ثروت كشفاً مرضياً بأسماء الذين كانوا على استعداد للعمل معه من الوزراء، وكان أُلنبي في موقف يسمح له بأن يبرق بذلك الحل إلى وزارة الخارجية للموافقة عليه.

ويمكن بقدر الإمكان تلخيص وتبسيط وجهة نظر أُلنبي ووجهة نظر الحكومة البريطانية حتى ذلك الوقت فيما يأتي: كانت الحكومة مستعدة — بعد عرض المسألة على البرلمان — لإلغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر، على شريطة أن يرتبط المصريون بشروط خاصة ببعض المصالح والحقوق الانجليزية وأهمها سلامة مواصلاتنا الإمبراطورية، وحماية الأجانب في مصر ومركزنا في السودان. وهذا ما رفضه المصريون. ثم نصح أُلنبي الحكومة البريطانية بوجود إلغاء الحماية وإعطاء مصر الاستقلال في الحال، كما يجب على بريطانيا العظمى في نفس الوقت أن تعلن احتفاظها بحرية العمل إذا تطلبت مصالحها ذلك — في بعض المسائل التي عرفت فيما بعد باسم «التحفظات» إلى أن يحين الوقت الذي يمكن أن يتفق فيه على هذه المسائل اتفاقاً ودياً. ولكن رأَت الحكومة أنه من المحال علينا أن نتنازل عن مركزنا في مصر بإلغاء الحماية ما لم نحصل أولاً على تعهدات من المصريين بشأن مصالحنا الخاصة. فرد على ذلك أُلنبي بأن مركزنا في مصر لا يعتمد في الواقع على حماية خيالية غير محدودة بل يعتمد على قوتنا البحرية في المتوسط كما يعتمد على حامياتنا الموجودة في الدلتا فهذه هي ضماناتنا الحقيقية فإذا أعلننا ونحن الطرف الأقوى — إننا مصممون على حفظ حقوقنا في المسائل الأساسية لم يكن هناك خوف

من إعطاء الاستقلال لمصر بل سيكون لذلك فائدة كبرى إذ سيرجع التعاون
المصرى بقوته مرة أخرى .

وطلب أللنبي في برقيته لوزارة الخارجية رداً منها في الحال ، فأدى ذلك
إلى اتهامه ، « بالهجوم » ، وبتصويبه فوهة الغدارة الى رأس الحكومة ، وبأنه
أرسل اليها انذاراً نهائياً ، وبأنه - وذلك حق - كان فيها جافاً كما كان
عسكرياً . ولكن التفسير الحقيقي لذلك هو أن أللنبي كان يدرك أنه لم يعد
أمامه من الوقت ما يضيعه كما كان على علم بطبيعة السياسيين المصريين المتقلبة
كذلك كان الحل الذى أسرع بطلبه الآن شيئاً غير جديد بل هو نفسه الحل
الذى سبق أن قدمه للحكومة مراراً فى السنة الفائتة ، ثم هو حينئذ كان مصمماً
على إيجاد المخرج من غير ابطاء ، ولقد أبرق أللنبي - فى نفس الوقت الذى
أرسل فيه برقيات الرسمية - ببرقية خاصة الى اللورد كرزون وزير الخارجية
يطلب فيها مساعدته وأجابه كرزون بأنه سيدل أقصى ما يستطيع ليحصل
على قرار سريع من الوزارة ، وبأنه يرجو أن تكون الاجابة مناسبة . وفى
الواقع أوصى كرزون بكل قوته فى مجلس الوزراء باتباع اقتراحات أللنبي إلا
أنه انحنى فى وجه المعارضة التى لقيها شأنه فى ذلك شأنه فى مناسبات أخرى .
ثم أرسلت لألنبي فى ١٨ يناير برقية تقول إن الوزارة لا تستطيع الموافقة على
مقترحاته كما قدمت واقترحت عليه فيها أن يرسل اثنين من مستشاريه إلى الوطن
هما سير چلبرت كلايتون ومستر آموس ليوضحا لهم المسألة أكثر من ذلك
ولم يكن هذا الاقتراح بالذى يلقى أى ميل من أللنبي فأجاب فى الحال بأن مستشاريه
موافقان تماماً على الحل الذى سبق أن اقترحه وبأن ارسالهما إلى الوطن إنما
هو تضييع للوقت لا جدوى فيه وبأن أحد موظفيه مستر سلبي Selby سيكون
فى إنجلترا بعد قليل وسيمكنه حينئذ إعطاء أى إيضاحات مسهبة يرونها ضرورية

ثم كرر في برقية شخصية ثانية لكرزون حججه الرئيسية مبيناً له خطر التأخير وختمها بتقديم استقالته إذا رفضت مشورته .

ولما انتقد أللني فيما بعد لسبب أسلوبه هذا ولسبب تسرعه في تقديم استقالته فقد وجب أن يتضح أن تقديم استقالته هذه إنما كان في برقية خاصة منه إلى كرزون ، وإذن لم تكن استقالته استقالة نهائية ، بل كانت نية أللني أن يقوى بها مركز كرزون وزير الخارجية في مناقشاته مع الحكومة . وكان كرزون قد أبرق إلى أللني بأنه سيؤيده أمامها حتى لو أدى ذلك إلى تقديم الاستقالة ، وبذلك اعتقد أللني أنه بوضعه استقالته بين يدي كرزون إنما يعطيه سلاحه إضافياً ليستعمله في وجه الحكومة ، ثم إن التلغرافات الشخصية المماثلة لا تعرض في العادة على أعضاء الحكومة الآخرين كما تعرض عليهم التلغرافات الرسمية وهكذا عرض تلغراف أللني الشخصي ذاك دون الإشارة إلى تلغراف كرزون الشخصي إليه . ولقد اعتبرت استقالة أللني هذه في نظر بعض الوزراء الجاهلين بحقيقة الأحوال كما لو كانت محاولة من قاطع طريق راجل يريد أن يلحق بعربة الحكومة .

وفي ٢٤ يناير أبرقت وزارة الخارجية إلى أللني بصيغة أخرى — وصفها كرزون فيما بعد بأنها قنطرة أقامها لأللني بصعوبة — قوامها رغم ذلك نفس الاقتراح بأن على المصريين أولاً أن يوافقوا على مطالبنا ثم تلغى الحماية بعد ذلك وأجاب أللني في ٢٥ منه بأنه سيحاول تنفيذ سياسة الحكومة هذه وإن لم يكن له أقل أمل في أن يرضى العمل بتلك الشروط وزير مصرى ولهذا لم يجد لنفسه حيلة في تقديم استقالته رسمياً وبصورة نهائية وفي نفس الوقت أخبر المستشارون الرئيسيون الأربعة في الحكومة المصرية — وهم الذين قدمت

اقتراحات أللنبي بمشورتهم — وزارة الخارجية البريطانية بأن استقالة أللنبي
معناها بالطبع استقالتهم أيضاً .

وبعد اجتماع آخر طويل للوزارة أرسلت برقية اتهام مطولة لأللنبي في
٢٨ يناير اهتمته فيها الوزارة بأنه غير فيجأة وبدون تنبيه منه سياسة استشارته
فيها الحكومة ، وسياسة كانت في معظمها نتيجة لنصائحه هو ، كما اهتمته
بتضليلهم فيما يتعلق بأمل إيجاد وزارة تستطيع العمل بتلك السياسة ، وبأنه
الآن راح يقدم انذاراً نهائياً للحكومة ويطلب منها إجابة في الحال بغير
مناقشة ، ثم ختمت البرقية بأمر أللنبي بالعودة الى الوطن لاستشارته وفي
صحبته أموس وكلايتون وكلاهما من مستشاريه الرئيسيين . وفي الحقيقة كانت
أغلبية الوزارة قد قررت تعيين آخرين مكان أللنبي ومستشاريه ، واذن كان
القصد من تلك البرقية أن تعد الوزارة مبررات عملها هذا فيما بعد . كانت
هذه البرقية في الواقع خطأ تاماً في فهم الموقف وما أيسر أن تدحض اتهاماتها
بل لقد أعطت لأللنبي حجة قوية للرد عليها ، ولكنه رغم ذلك لم يرسل اليهم
اجابة مباشرة بل طلب الى موظف مشهود له بالكفاءة الفائقة من معاونيه أن
يعد رسالة يدحض بها اتهامات وزارة الخارجية له وحملها الى الوطن ، وتعد
هذه الرسالة من خير ما كتب للتدليل على شيء والتعبير عنه ، فقلب بها أللنبي
حجج وزارة الخارجية رأساً على عقب . ويحمل ذكر الفقرة الأخيرة منها
كشيء يميز لأللنبي .

« ان المهمة التي كلفني بها حكومة صاحب الجلالة هي أن أبقى حماية
جلالته على مصر ولقد وفيت بذلك مع اعتقادي بأنها غير قيمة بالبقاء ، بل
لقد نصحت الآن بانها بتصریح من جانب واحد كما سبق أن أعلنت كذلك .

ولقد بينت لحكومة صاحب الجلالة اتجاهها أرى اتفاقه مع التقاليد العامة للسياسة البريطانية وللؤسسات البريطانية ، ثم هو في صميم مصلحة الامبراطورية زيادة على ملائمتها لنمو مصر السياسي ذلك النمو الذي حاولت أن تشجعه دائما حكومة صاحب الجلالة ، والذي كان هدف الأعمال التي قام بها من سبقني من أولئك الرجال الذين عملوا على رفاهية الشعب المصري في الوقت الذي خدموا فيه وطنهم .

غادر النبي مصر في ٣ فبراير ولقد كانت أخبار الحماس البالغ الذي ودعه به المصريون والبريطانيون والأجانب لاني القاهرة فحسب بل في سائر المحطات الأخرى على طول الطريق ثم في الإسكندرية أول سبب جعل مناوئيه في الوطن يشكّون فيما إذا كان من السهل عليهم التخلص من شخص بلغ حب الناس له هذا المبلغ ثم قوى شكوكهم هذه ما نشرته الصحف من المقالات — وبخاصة جريدة التيمس — تأييدا للنبي وذلك منها على غير معرفة تامة بمقترحاته . ولقد كان لموقف التيمس منه أهمية خاصة إذ كان محررها الخارجي الفذ سير فالنتين شيروول Sir Valentine Chirol في مصر منذ قليل وكان النبي قد قابله بفتور لتضايقه من التعليقات التي نشرت في جريدته على السلطان لا عليه ، فلم يكن لشيروول والحالة هذه ما يحفره الى محاباة النبي لولا فهمه للمسألة المصرية ، فلما أن علم في لندن بحقيقة المقترحات التي عرضها النبي راح يؤيده في حرارة ، بل أبرق إلى لورد نور ثكليف صاحب التيمس والذي تصادف مروره يومئذ بمصر في طريقه الى الوطن — يقترح عليه البقاء بمصر ريثما يدرس المسألة المصرية في موضعها وأرسل نور ثكليف بدوره برقية للنبي يسأله عما إذا كان ممكنا له أن ينزل ضيفا بدار المعتمد البريطاني في القاهرة وأخذت الحيرة النبي إذ كان آخر من يرجو تأييد الصحافة وإذ كان لا ثقة له

في رجالها غير أن رجاله أقنعوه باستضافته لنورثكليف وما كاد هذا يمضي أياما عديدة حتى طفق يجمع خلالها كل أنواع الآراء في مصر ، بل لقد رأى بعينه وداع اللنبي المؤثر . وهكذا كانت المساعدة القيمة التي قدمتها التيمس في الأسابيع التالية أكبر عامل في نجاح اللنبي .

ولقد أوضح اللورد نورثكليف بعد ذلك أن آمال المصريين في تسوية كريمة تركت تنمو مدة عامين بغير مقاومة فلما أن فشلت مفاوضات عدلى كرزون نشأ على أثرها شعور عام بالمرارة وعدم الثقة شلت بسببه الحكومة في مصر وبذلك أصبح الموقف عجيبا فيها ، فهذه الحكومة يديرها منذ ديسمبر وكلاء الوزارات وهذا وضع لا يمكن أن يستمر إلى غير نهاية ولم يظهر أى أمل في علاج ذلك الموقف مالم يوجد حل لهذا المأزق ، ثم أخذ في نفس الوقت موقف الموظفين البريطانيين الذين تعتمد الوزارة البريطانية عليهم في إدارة الآلة الحكومية في مصر ، يزداد سوءا يوما بعد يوم ، وتبين للورد نورثكليف أن من كانوا في مصر فهموا حقيقة الموقف وأحسنوا التصرف بحكمة وشجاعة ثم انتهى إلى أن المعتمد البريطاني قد مهد الطريق خير تمهيد لأحسن وسيلة عملية يمكن أن تحل بها المشكلة المصرية ، وأنه من الأنفع الاستفادة من نصائحه إذ هي تؤكد في الحال حسن نية بريطانيا وهذا ما كانت تستلزمه الحال في مصر بسرعة ثم قال إن تلك المقترحات لو نفذت لوضعت المصريين في الطريق الذي أرادوه لأنفسهم ، كما أنها لا تعرض مصالح بريطانيا المهمة للخطر بأى شكل من الأشكال . ثم أوضح لورد نورثكليف أخيرا أن هناك تضامن في الرأي وراء محاولات اللنبي للوصول إلى الحل وظهر ذلك بوضوح لا يدعو إلى الخطأ بدليل ذلك الجمهور الكبير الممثل لجميع الطبقات الذي ودع الفيكونت اللنبي في المحطة عند رحيله إلى لندن .

ووصل النبي إلى لندن في الصباح الباكر من يوم ١٠ فبراير فقابله على المحطة سير هنري ويلسون Sir Henry Wilson رئيس هيئة أركان حرب الامبراطورية والسير فيليب شتوود Chetwood والمستر سلبي Selby وكانت حالة النبي المعنوية طيبة فلم يلبث أن أعلن لأصدقائه في الحال أنه لن يتزحزح قيد أنملة كما أنه لن يحاول إقناع أحد رافضاً بذلك من أصدقائه النصيحة التي توقع مجيئهم من أجلها. وعلى الرغم من تحذيره بأن الوقت لم يحن بعد للتوجه إلى وزارة الخارجية الا أنه صمم على سرعة الذهاب إلى دوننج ستريت ليترك لهم الرسالة التي يرد بها على ما سماه « الاتهام الخبيث » في برقية ٢٨ يناير التي أرسلتها له وزارة الخارجية .

وأن ما قدر لهذه الرسالة فيما بعد لشيء طريف ، فلقد كتب عليها كالعادة المتبعة في مثل هذه الوثائق الحكومية الهامة « تعرض على جلالة الملك وعلى حكومته ، ولكن بالرغم من ذلك لم يكذ لورد كرزون يقرأ صفحاتها الأولى حتى أسرع فاتصل بالتلفون بفرع وزارة الخارجية المختص لينع عرض تلك الرسالة ، وما قابل النبي في المساء حتى انصبت ملاحظاته الأولى عليها فابتدر النبي قائلاً : « أنها لوثيقة قوية تماماً يا لورد النبي ولا بد أن من كتبها شخص ماهر جداً . انك لم تكتبها بنفسك أنت فمن كتبها لك ؟ » وأجاب النبي على هذه المبادرة غير اللبقة بقوله « كلا . لم أكتبها أنا ولكني موجود في كل كلمة من كلماتها ومستعد أن أمضى كل سطر منها إذا كانت لا تعجب حضرة اللورد . لقد كتبها لي رجل حاذق بالفعل » ثم قال كرزون بأنها وثيقة لايناسب عرضها على الملك أو الحكومة إذ هي ليست من نوع الوثائق التي اعتاد هو — بصفته وزيراً للخارجية — أو اعتادت الحكومة تسلمها من ممثليها في الخارج ، فقال للنبي أنه آسف لذلك ، ولكن بما أن اللورد كرزون قد رأى من المناسب

تقديم بعض الاتهامات ضده في البرقية المرسلة — وقد عرضت هذه الاتهامات من غير شك على الحكومة فر بما إذن تكون هذه الرسالة رداً منه على تلك الاتهامات ومن الواجب لذلك أن يصر هو على عرضها .

وأنفق بعد ذلك كرزون قليلا من الوقت في محاولة اقناع أللنبي بسحب استقالته وراح يذكركه بتجربته هو يوم كان نائبا للملك في الهند إذ كثيراً ما كانت ترفض الحكومة مقترحاته ولكنه مع ذلك لم يكن ليستقيل وأضاف بأن هذا هو نفس ما يحدث الآن مع لورد ريدنج نائب الملك الحالي وأجابه أللنبي بأنه لا يريد أن يقارن بين عمل اللورد كرزون وعمل اللورد ريدنج وبين عمله هو فان مسلكه هو واضح وأن كلمته كانت حينئذ عملة سائرة بين القاهرة والخرطوم فاذا هو وافق على العودة الى القاهرة بعد رفض مقترحاته فمعنى ذلك أنها لن تساوى قيمة الورق الذي كتبت عليه وثانية لا يستطيع أن يضحى بأى ثمن بالثقة التي يتمتع بها في مصر وعندئذ سأله كرزون في عطف عن كيفية تمكنهم من إيجاد خلف له أنها ستكون أكثر صعوبة كما ستكون غير مناسبة فقال اللنبي « لو سألتني النصيح لقلت لك أرسل رجلا في مثل كفاءتي أو خيرا مني لو استطعت أن تجده . »

ولما لم يستطع كرزون التأثير على أللنبي راح يقول له بأن من الواجب عليه أن يقابل رئيس الوزراء ولكن أصر أللنبي مرة أخرى على ضرورة اتخاذ قرار في الحال ثم انتهى الحديث بنقد مر صبه كرزون على مسلك المستشارين لتقديمهم استقالتهم تضامنا مع أللنبي فاجاب أللنبي بأنه يعتبرهم قد خدموه بولاء كما خدموا حكومة جلالة الملك وبأنه لا يسمح بالمناقشة في هذه النقطة وفيما هو يغادر القاعة سأله كرزون عن مكان اللادى أللنبي فلم

يستطيع اللبني إلا أن يرد عليه بطلقة أخيرة « لقد تركتها ورائي في مصر خشية وقوع الاضطرابات لو صحبتها معي » .

ولقد ترك هذا الحديث الذي استمر ساعة ونصف تصميم اللبني كما هو ثابتا لا يلين . وكان اليوم التالي يوم سبت والعمل الوحيد الذي أداه اللبني فيه هو ذهابه بنفسه إلى وزارة الخارجية ليتأكد من أن رسالته قد عرضت . ولقد أخبره جلالة الملك فيما بعد بأنه قرأها وتذوق كل كلمة من كلماتها .

ولقد حدد يوم ١٣ فبراير للمقابلة الهامة مع رئيس الوزراء إلا أنها أجلت في نفس اليوم إلى صباح ١٥ فبراير وكان موقف الوزارة حينئذ سيئا إذ وجد اللبني المزيد من معارضة الصحافة بينما كانت رسالته هو رداً مفتحاً على الاتهامات التي أريد بها تبرير إقالته كما كان له الحق وأمامه الفرصة — بصفته لورداً — لكي يعرض حالته في مجلس الشيوخ في حالة قبول استقالته . ولقد ترك لرئيس الوزراء مستر لويد جورج محاولة إخراج اللبني من الموضع الذي خندق فيه والذي لم تجد في إخراجه منه أدلة وزير الخارجية .

ولقد ذهب مع لورد اللبني إلى الاجتماع سير جلبرت كلايتون ومستر أموس . بينما كان لورد كرزون عوناً للمستر لويد جورج وما كادوا يجتمعون حتى قوبل اللبني بنيران حامية من الأسئلة والاعتراضات على مقترحاته لكنه بادرها بإظهار بعض نفاذ الصبر شاكياً تعدد المرات والفرص التي رفضت فيها نصائحه ، فقال رئيس الوزراء « ولكسك تطلب مني الآن أن أترك كل مركزنا في مصر دون أي ضمان ، فقاطعه أموس في نفس اللحظة قائلاً « ليس ذلك ياسيدي وصفاً صحيحاً لمقترحات لورد اللبني ، فأغضى عندئذ مستر لويد جورج عن أموس معاوداً ذكر اعتراضات الحكومة فعاد أموس

وجاوب عليها وبينما المناقشة مستمرة إذا باللبنى يتدخل مقاطعاً « حسناً ياسيدى ، لافائدة إذن من المناقشة أكثر من ذلك . لقد أخبرتك بما أعتقد ضرورته ولا تريد أنت ذلك ، وليس من شأنى أن أرغمك عليه . ولقد انتظرت خمسة أسابيع ليصدر القرار فلن أستطيع الانتظار بعد اليوم أكثر من ذلك وسوف أخبر أنا لادى اللبني لكي تعود إلى الوطن » فنهض حينئذ رئيس الوزراء ووضع يده على ذراع اللبني قائلاً « لقد انتظرت خمسة أسابيع يا لورد اللبني ، فهل يضيرك أن تنتظر خمسة دقائق أخرى » ثم أعلن في نفس الوقت موافقته على مشروع اللبني بعد إدخال بعض تعديلات قليلة عليه ، فقال اللبني أنه سيفحص تلك التعديلات ثم يعطى إجابته النهائية عليها ظهر ذلك اليوم ؛ وسرعان ما أكد له مستشاروه - الذين وضع أمامهم التغييرات المقترحة بعد الاجتماع - بأنها تغييرات فى الصيغة لا أهمية لها على الإطلاق ، وبأنه قد حصل على كل ما أراد .

ثم بقى مجهود واحد كان من شأنه أن يعرقل الحل الذى اتفق عليه ، ولم يأت ذلك من أعضاء الحكومة الذين سبق لهم أن قاوموه دائماً ولا من المستر ونستون تشرشل الذى كان أكثرهم تصميماً فى ذلك بل أتى من كرزون ، كرزون الذى كان فى الأصل يؤيد هذا الحل بجرارة إذ أخذ يقوم بمجهود ضعيف يحاول به العودة الى الاقتراح القديم القائل بأنه لاسبيل إلى إلغاء الحماية إلا بعد الاتفاق على مسائل التحفظات ؛ فلما وافقت الحكومة نهائياً على الوثائق التى اتفق عليها رئيس الوزراء مع اللبني راح كرزون يتكلم فى تدمير عن « غباوة أولئك الجنود » . لقد ترك فى نفسه فشله فى التأثير على اللبني فى محادثاته معه من غير شك المأ دائماً .

وغطت الحكومة هى الأخرى فشلها بسحابة من التصوير الخاطيء . ففى إحدى المناقشات بمجلس العموم فى ١٤ مارس لتأييد إلغاء الحماية على مصر

راح مستر أوستن تشمبرلن الذي تكلم باسم الحكومة يصور المسألة بشكل يفهم منه أن النبي هو الذي تقهقر لا الحكومة فقال « أراني سعيداً حين أقول إن اللحظة التي جمعنا بلورد النبي وجهاً لوجه قد أزلت كل خلافاتنا معه ، إذ أدرك في الحال أننا لانستطيع تغيير الحالة القائمة في مصر فيما يختص بتلك المسائل من غير أن نحصل على ضمان نهائي بقدرتنا على حماية مصالحنا والقيام بتعهداتنا . » ثم كرر نفس تشويه الحقائق وبشكل أقوى من ذلك مرتين في خطابه ، ولكن إنصافاً منا لرجل له احترامه يجب القول بأن تشمبرلن لم يشترك في المناقشات وربما كان يجهل إذن أن ذلك المختصر الذي أعطى له غير صحيح . ولم يحتج النبي على ذلك بأى احتجاج . لقد سار في طريقه دون أن يهتم بما قيل عنه . ولكن بقيت ذكرى ذلك الخطاب عالقة بذهنه إلى أن أصبح أوستن تشمبرلن وزيراً للخارجية وربما ساعدت على سوء التفاهم الذي وقع لسوء الحظ بينهما .

تلك هي قصة الدور الخفي الذي لعبه النبي للحصول على تصريح سنة ١٩٢٢ باستقلال مصر . وما زال بعض الاستعماريين الذين لا يغفرون يتكلمون عن النبي بحرارة كأنه الرجل الذي باع جواز المرور وضيع مركزنا في مصر . ولو صح إتهام رجل بذلك لكان ملئز . ففي الواقع لم يوجد أى جواز للبيع مادام لم يكن هناك الجواز الذي يستولى عليه .

وكانت هناك نقطة أخيرة ربما استمات بيأس بعض الحمقى في الدفاع عنها لولا أن حمتنا من ذلك حكمة النبي ، والآن هل يوجد شك في أن حله كان هو الحل الصواب ؟ وفي أن أى حل آخر كالضم الفعلي أو الحكم العسكري - بغض النظر عن مسائل الأخلاق والعدالة - كان شيئاً لا يمكن التفكير فيه مراعاة لطبيعة الأمة الانجليزية في ذلك الوقت ومراعاة لعدم ثبات حكماها .

فما هو مدى الوقت الذى يسمح فيه الرأى العام بالحكم العسكرى فى مصر ،
وما مدى الوقت الذى تؤيد فيه الحكومة ممثلها فى ذلك النوع من الحكم ؟
أو لم يجرب النبي من قبل بنفسه تذبذب رأى الحكومة فى سنة ١٩٢٠
ولم تكن عظمة الخدمة التى قدمها للنبي لوطنه ولمصر فى تلك الأزمة فى
تعرفه للحل الصواب — الأمر الذى كان فى مقدور أى شخص يعرف
الحقائق والظروف — بقدر ما كانت فى شجاعته وتصميمه اللذين أظهرهما فى
تبين ذلك الصواب وفى حمل عبء الدفاع عنه فى وجه كل تلك المعارضة وذلك
التشويه ، وكم يستحق مستشاروه اللذين عرضوا مناصبهم للضياع تضامنا معه
من تقدير الدولة بعملهم ذاك ؟ .

ويمكن تصوير التناقض بين عمل مستر لويدي جورج الذى كان أول من
عارض مقترحات النبي ولكنه انتهى الى تأييدها فى شجاعة سياسية فائقة
عندما ظهرت له الحقائق ، وبين عمل لورد كرزون الذى أدرك من بادىء
الأمر صواب الحل الذى عرضه النبي ولكن لم يجد فى نفسه الشجاعة الخلقية
التى يؤيده بها فى وجه المعارضة . إن ذلك ليعطينا مقياسا لقيمة الرجلين فى
الأزمة . ففى قاعة المجلس كما فى ميدان العمل ترجح كفة الشجاعة والأخلاق
على مجرد المعرفة والمقدرة . وبعد هذه التجربة لم يعد النبي يحترم اللورد كرزون
ولكنه بقى يعجب بلويدي جورج ويحبه دائما .

ولقد حدث أن ألقى النبي — بعد ذلك بسنوات — خطابا فى مادبة على
أثر إحدى هجمات لويدي جورج على لورد هييج والجنود . فلما انتهى قال له
واحد من أصدقائه « لقد خيبت أمل الصحافة إذ جاءوا وفى ظنهم أن يسمعوا
منك هجوما على لويدي جورج » فأجابه النبي فى الحال « أهاجم لويدي جورج ؟ إني
لأحب هذا الرجل . لقد كسب هو الحرب . ولكن بحق السماء لا تقل له ذلك » .

الجزء الثاني

مصر - الاستقلال

مارس سنة ١٩٢٢ - يونيه سنة ١٩٢٥

أول النعم الأولى ، الاستقلال .

جيبون . ترجمته لنفسه

أكانت الناس يهديها إليه

أو تغويها أعلى الحناجر

أو كان الأسرع أن يموت المرء بالسيف

أو الأرخص أن يموت بالانتخاب

.

الدولة المقدسة أو الملك المقدس

أو إرادة الناس المقدسة

فلا شأن لهذه مع شيء لا يحس

هيء المدافع ثم اقتل

روديارد كيلنج

الفصل الخامس

١٩٢٢ : نشأة النظام الجديد في مصر

تذكر دائماً أن صنع سوار على قد المعصم أفضل
من عقد طويل يتمتر فوقه من يلبسه .
جوان جرانت . الفرعون المنجح

أنفق أللنبي الأعوام الثلاثة الأولى التي قضاها في مصر معتمداً برطانيا
في الوصول إلى سياسة فعالة يبنى على قواعدها علاقاتنا بمصر بعد الحرب ،
وأنفق الثلاثة الأخرى في الأشرف على بواكير النظام الجديد الذي أثمرته
تلك السياسة .

ولقد كانت هذه فترة من التبرم وخيبة الأمل انتهت بجريمة حمقاء ، وأرجع
البعض مسئوليتها إلى سعة الصدر التي ظهر بها أللنبي ، ثم ختمت باستقالته في
ظروف من سوء الفهم والإيلام .

إن أخطاء تلك الفترة ونكباتها هي أمام الجميع ليروها . ولقد أطفأت
النجاح المكتسب والرجح الحقيقي الذي ظفر به . لقد وضعت في هذه السنوات
قواعد الحياة السياسية لمصر الحديثة وكان لألنبي دور كبير في تشييدها وتأمينها
وإن ما أعقبها من حوادث ليبين أن تلك القواعد إنما وضعت الوضع الحسن
الصحيح الحكيم بالنسبة لما تيسر يومها من المادة والعمل .

وبينما كان أللنبي في تلك الفترة في أعين مواطنيه في مصر مدافعاً فاتراً عن

حقوقهم وامتيازاتهم كان في نظر البعض من حزب العمال في وطنه حريياً متجبراً يسحق حريات المصريين . وكذلك المصريون الذين لم يكونوا في حالة تسمح لهم بالشكران لواحد من الانجليز أنحوا عليه لقسوته أكثر مما اعترفوا له بسماحته ، إلا من كانوا على مقربة منه — مصريين أو بريطانيين — فقد أدركوا وخدم مدى ما حققه إصراره على غرضه في أشد الظروف امتحاناً للنفوس ومدى الحكمة التي كانت تظهر بها نصابه وأحكامه . ولكن لحسن الحظ لم يحفل أَللنبي سواء لقي الثناء أم لقي الذم ، لقد كرس نفسه لمشاكل النظام الجديد في مصر دون التفكير في شهرة يختص بها أو منفعة تعود عليه .

كانت المشكلات المباشرة بعد إعلان تصريح سنة ١٩٢٢ هي : وضع الدستور ، وإلغاء الاحكام العرفية التي استمر العمل بها زهاء ثمانى سنين ، وتعويض الموظفين الأجانب وخاصة البريطانيين الذين كانوا بسبيل من فقد وظائفهم وآمالهم في ظل النظام الجديد ، ولقد حلت هذه المشكلات كلها بنجاح خلال الثمانية عشر شهراً التي تلت ذلك ، ولكن كان الهدف الأقصى هو إبرام اتفاقية مع مصر بشأن مسألة « التحفظات » : تأمين المواصلات الامبراطورية والدفاع عن مصر وحماية الأجانب والسودان . ولو قد أتيح لأَللنبي أن يبقى في مصر مدة أطول بعد ذلك لكان من المحتمل الوصول إلى حل لهذه المشكلات الصعبة منذ زمن بعيد ، وذلك لثقة المصريين به واحترامهم له واعتقادهم في نزاهته . ولكن كما حدث انقضى منذ رحيله أكثر من عشر سنوات قبل أن تبرم مثل هذه المعاهدة بين بريطانيا العظمى ومصر .

« يعطى مرتين من يسرع بعطائه وينزل بقيمة هبته إلى نصفها من يتردد ويعطى على كره منه . فلقد سمحت الستة الأسابيع الأولى من سنة ١٩٢٢ والتي انقضت بين عرض مقترحات أَللنبي على مجلس الوزراء وبين قبولها — لبعض

الآثار التي ترتبت على نفي زغلول بأن تضمحل بالتدريج ، كما أتاحت الوقت للمتطرفين ليسمموا فيه العقلية المصرية ضد أي هبات يقدمها الانجليز ، ولقد ساعدتهم في ذلك حوادث معينة . فقد فسرت المعاهدة التي أبرمت بين بريطانيا وإيرلندا في نهاية سنة ١٩٢١ للدلالة على أن العنف والقتل كانا من أعظم الوسائل المؤثرة للظفر بالمغانم من بريطانيا العظمى ، كما بدا ضعف حكومة لويد جورج الظاهر في بريطانيا نفسها نذيراً بسقوطها القريب ، ثم إن ما كان يرجى من حكومة العمال قد عُرِفَ لمتطرفي المصريين عندما مر مستر رمزي مكدونالد — رئيس الوزراء المنتظر لمثل هذه الحكومة — بمصر قبيل عودة ألنبي بالتصريح . فقد أعلن مستر مكدونالد لبعض الزغوليين المحليين الذين احتفوا به في بور سعيد بأن أهالي إنجلترا « سيتحققون سريعاً من أنها كانت تحكم حكماً سيئاً » وبأن مصر بعدئذ ستتولى أمر نفسها ، كذلك صرح لهم بالأمل في سرعة رجوع زغلول .

وعلى ذلك فالسياسة السخية التي حصل عليها ألنبي بالتصريح قد قبلها المصريون إلى حد ما — على كره منهم وباعتبارها « دفعة » من الاستقلال التام . ولقد وجدت أمام الساخطين مواد كثيرة لاستعمالها فراحوا يتساءلون أي نوع من « الاستقلال » هذا الذي يمكن أن تتمتع به مصر بينما هي لا تزال تحت وطأة الأحكام العرفية يحكمها الجنود الأجانب ، وبينما زعيم الشعب المختار لا يزال في المنفى ، وبينما الموظفون الأجانب لا يزالون ينفحون الماهيات الضخمة ويحتفظون بمعظم المراكز الرئيسية ثم لا يمكن إقصاؤهم فقط إلا بالتعويض الباهظ وبينما السودان وهو الجزء المتهم لمصر لا يزال تحت السيادة البريطانية ؟

وتاريخ مصر السياسي خلال السنوات الثلاث من سنة ١٩٢٢ إلى سنة

١٩٢٤ هو تاريخ صراع ثلاثي أطرافه الثلاثة الملك . والجماعة التي تضم معظم المثقفين المعتدلين من المصريين والتي يصح تسميتها بحزب الأحرار . ثم الحزب الشعبي الذي ينادى بزغلول رئيسا له . ويمكن القول بأن اللبني إنما اتخذ لنفسه موقف الحكم يتدخل أقل تدخل مستطاع لكنه ينفخ في صفارته بحزم عندما تقع أسوأ الأخطاء وأشدّها وضوحا متجاهلا — شأن كل حكم نزيه — صياح الجماهير ونقدها عند كل قرار لا يحبونه .

أعلن فؤاد السلطان السابق ملكا على مصر في ١٥ مارس ويبدو أن هذا الرقي في اللقب قد حول من طموحه وزاد في حبه للسيطرة فهو كسلطان لم يكن له سوى أثر ضئيل ولم يجتذب سوى انتباه يسير، أما وقد أصبح ملكا فقد أراد أن يحيى على قدر ما تسمح به الظروف الحديثة حكم جده محمد علي أو والده الخديوي اسماعيل . وبذلك أصبح عاملا هاما في السياسة المصرية وهو فائق المهارة كسياسي وكان من الفطنة بحيث أدرك قيمة الدعاية وكثيرا ما استعمل لذلك الصحافة، ولقد حاول دائما ان يرفع الى منصب الوزارة واحداً من أنصاره — أو اثنين — يكون على صلة بالسراي من وراء ظهر رئيس الوزراء، فاذا لم يظفر حينئذ بما يشتهييه جهد في العادة في جعل مركز رئيس الوزراء هذا مركزاً مستحيلا .

وأما الحزب المعتدل والذي يمكن أن نسميهم بالأحرار فقد كان يضم أغلبية الأكفاء والأذكياء من المصريين وفيهم الكثيرون من طبقة الحكام السابقين من الأتراك، وممثلهم الأول المهم عدلي باشا وكان نموذج السيد العظيم، من أرومة عريقة، له مظهر مؤثر وأخلاق مهذبة، وطني كامل النزاهة يتمتع باحترام عظيم لولا أن حظه من الشجاعة السياسية كان قليلا . فهو لا يستطيع

أن يواجه صعوبة من الصعوبات أو موقفاً من المواقف الكريهة ما دام في استطاعته أن يتفادى ذلك . ولقد أطلق عليه النبي بعد تجربته لتردده مرة أو مرتين اسم « القصبه المرضوضة » ولم يعد يثق به إلا قليلا ، أما ثروت باشا - زميل عدلى - وأول رئيس للوزراء بعد التصريح فهو أشجع من عدلى كما كان ذا كفاءات وخبرة ممتازة فائقة ولو استطاع أن يحظى بمثل الاحترام والاتباع الذين حظى بهم عدلى لربما كان الزعيم الذى احتاجته مصر فى ذلك المعترك . ولكنه حتى كما كان ، بذل الكثير فى سبيل وضع أسس المستقبل لمصر ، رغم كراهية الملك له ورغم الدسائس التى حيكمت ضده .

أما زغلول وحزبه الذى يعاونه - الوفد - فكانوا يمثلون من غير شك الرأى المصرى العام لولا أنه وتابعيه كانوا عامل هدم لا عامل بناء ولقد سبق لنا ذكر عجالة عن خلق زغلول ولكن على الرغم من اتصافه بالذكاء والاعتدال قد ارغمته الظروف على أن يصبح زعيما للجهلة والغوغاء من غير أن تكون له القوة والحكمة الكافيتان لقيادتها .

وكان يحوم وراء ذلك كله شبح الشخصية المملغزة ، شخصية الخديوى السابق عباس حلمى - ابن أخى الملك فؤاد - الذى خلع فى سنة ١٩١٤ فى مستهل الحرب العالمية والذى عاش منفياً فى أوروبا . كان أثره فى السياسة المصرية ضئيلا ولكن كان لدسائسه - الحقيقية أو الوهمية - أثر ملحوظ ، وفى الواقع كان الخديوى السابق آخر شخص يمكن لبريطانيا العظمى أن تعيده إلى العرش أو حتى تسمح له بمجرد العودة إلى مصر ، فى حين أنه هو لم يكن له أى حظ من التأيد العام فى مصر نفسها ، ومع ذلك فقد كان يحلو لبعض المصريين - فى الوقت الذى وجد فيه آخرون فائدة سياسية أو مالية - الدس الرفيق مع

الخديوى المعزول ، وكانت تسره هو هذه الدسائس — ذاتها كما كان يستغل مشاغباته تلك على أمل الحصول بها على حل مالى أفضل لمطالبه من الحكومة المصرية .

كان منطق الحوادث التى تلت مباشرة عودة ألنبي بالتصريح إلى مصر هو ، عرضه على السلطان ، تأليف وزارة برياسة ثروت باشا ، وموافقة مجلس العموم البريطانى على المشروع فى ١٤ مارس بعد مناقشة دامت سبع ساعات بينت أول ما بينت — الجهل المطبق لحقيقة الحال فى مصر ، ثم إعلان فؤاد ملكا على مصر فى اليوم الذى يليه ، ومذكرة من الحكومة البريطانية لجميع الدول بانتهاء الحماية على مصر ، تضمنت الفقرة التالية :

« إن انتهاء الحماية على مصر لا يتضمن — مع ذلك — أى تغيير فى الوضع الراهن بالنسبة لمركز الدول الأخرى فى مصر نفسها . إن خير مصر ووحدها أمران ضروريان لحفظ السلام ولسلامة الامبراطورية البريطانية التى ستحافظ لذلك دائما على العلاقات الخاصة بينها وبين مصر باعتبارها مصلحة ضرورية لبريطانيا طالما اعترفت بها الحكومات الأخرى . وقد حددت هذه العلاقات الخاصة فى التصريح الذى يعترف بمصر دولة مستقلة ذات حكومة ملكية ولقد بسطتها حكومة جلالة الملك على أنها أمور تتضمن حقوق ومصالح الامبراطورية البريطانية تضمننا حيويا ولن تسمح بالسؤال عنها أو ببحثها لاية دولة أخرى ويترتب على هذا المبدأ أن أية محاولة من دولة أخرى للتدخل فى شئون مصر سيعتبر عملا عدائيا كما سيعتبر أى عدوان على أرض مصر عملا يجب دفعه بكل الوسائل التى تحت أيديهم » .

وإن ذلك فى الحق لمبدأ « مونروى » لمصر .

وبعد ذلك غادر النبي مصر ستة أسابيع قضاها متجولا في أنحاء السودان وغرضه بذلك أن يدع الحكومة الجديدة لتوطد أقدامها ولتعد الدستور والإجراءات الضرورية الأخرى. ولكنه ما كان يعود في أوائل مايو حتى أطلت برأسها الآلام التي كان يعانيها ذلك النظام الجديد. وهذه هي العلة الثلاث التي تحتم على النبي أن يوجد لها العلاج مدة العامين التاليين أو ما يقرب من ذلك : الهياج الزائد بسبب السودان ، وجرائم جماعة من السفاحين ضد الانجليز في القاهرة .

وأصبحت مسألة السودان في تلك الفترة أقوى سلاح للتهبيج ضد بريطانيا ولقد استغل باستمرار وبسوء نية كشكوى من شكوى المصريين حتى أدى ذلك إلى قيام الاضطرابات في السودان نفسه كما أدى إلى الجريمة التي نفذت على أثرها صبر بريطانيا ، ولكي نفهم عناصر الشحنة التي هيئت طبقات المصريين وأثارت شغبها يجب أن نذكر نبذة عن تاريخ السودان وأحواله . فالفلاحون لم يعنهم إلا تأمين مياه النيل ، شريان الحياة في مصر ، وقليل ما اهتموا بمن الذي يحكم السودان طالما لم يمنع ظلم مامن جريان النهر . أما عند طبقة المحترفين - المحامين والموظفين المدنيين والكتبة - فكان امتداد حكم مصر للسودان معناه كثرة الأشغال لهم ، بينما كان إطلاق اسم مصر على السودان وازدياد قوتها فيه ، في نظر الملك والطبقة العليا مسألة من مسائل الكرامة ، على حين أتاحت مسألة السودان هذه للتهبيج المحترف فرصا لا نظير لها لثلب الحيانة البريطانية . وأما البريطانيون أنفسهم فعلاوة على استيلائهم القوى القائم على الكرامة والمصالح كانوا مدفوعين في الحقيقة بدافع حكم السودانين حكما صالحا وكانوا يحسون أن هذا الحكم أضمن في أيديهم مما لو كان في أيدي المصريين .

ولا تجمع سكان وادى النيل الأعلى بأهالى الدلتا قرابة جنسية ما وإنما الصلة التى تربطهم هى مجرى النهر العظيم إذ يشتركون جميعا فى مياهه . وهذا هو تاريخ ضم السودان لمصر قبل سنة ١٩٢٢ بمائة عام : أرسل محمد على بطل مصر الوطنى ، وكان ألبانيا ، حملة إلى السودان سنة ١٨٢٠ طواه على أثرها فى سلطانه ثم احتفظت مصر به فى الستين عاما التالية ، ولقد أظهرت من جانبها ميلا ضعيفا لحكم أهله حكما صالحا حيث سمحت لتجارة الرقيق بالرواج من غير حائل ما ، كما استغلت أراضيها استغلال الإهمال حتى أدت ستون عاما من سوء الحكم فيه إلى ثورة المهدي وذبح الجيش المصرى وبعثة غوردن لإخلاء السودان ثم إلى موته فى الخرطوم . ولكن أعادت فتح السودان للمرة الثانية قوة إنجليزية مصرية بقيادة كتشنر فوجده قدعانى من استبداد المهدي أضعاف ما عاناه من سوء الإدارة المصرية ولقد قدمت بريطانيا القيادة فى هذه القوة وكذلك الجزء الأكبر من الجنود بينما قامت مصر بالنصيب الأوفى من النفقات أى نحو مليون ونصف مليون من الجنيهات من مجموع المبالغ التى أنفقت والتى كانت تبلغ ٢ مليوناً .

ولقد أثار التصرف فى مسألة السودان بعد رفض مطالبة فرنسا بجزء منه فى حادثة فاشودة معضلة دستورية محرجة . فهل كان السودان مجرد مقاطعة مصرية نائرة أعيد احتلالها وبالتالى فهى ملك لخدوى مصر باعتباره وارثا له من محمد على الفاتح الأول ؟ أم قد محى اسم مصر فى الستين عاما التى استمر فيها حكم المهدي ؟ وإذن أصبح الآن هذا البلد الضخم جائزة حرب يجب أن يقتسمها غزاته الذين ظفروا به ؟ ثم أى حق لسلطان تركيا عليه وهو السيد الاسمى لمصر ؟ .

ليس من طبيعة البريطانيين أن يعالجوا مشكلة من هذا القبيل علاجا منطقيا أو مباشرا وها هو مركزهم في مصر شاذ لم يحدد مطلقاً ومن المؤكد أن شرعية مركزهم في السودان ستكون أكثر صعوبة في تنظيمها . لذلك طلب الى لورد كرومر ممثل بريطانيا في مصر والحاكم الحقيقي لها — أن يجد الحل لهذه المشكلة وكان غرض الحكومة البريطانية الأكيد — وكذلك الشعب البريطاني على قدر عنايته بمسألة السودان — هو أنه يجب أن يعطى هذا الاقليم المضطرب ، الهدوء وحسن الادارة ، — وخاصة بعد أن مضى عليه نحو ثلاثة أرباع قرن من سوء الحكم ، وكانت الحلول المنطقية الأخرى واحدا من أمرين . إما أن يضم السودان ضمها صريحا إلى بريطانيا العظمى ، وإما أن يعترف به جزءا من مصر على أن يحكمه موظفون بريطانيون تحت شعار مصرى . كما هي الحال في مصر ، أما كرومر فقد اختار على عمد منه اتفاقا غير منطقي وأسماه « بالاتفاقية » . ولقد استهلت بمطالبة بريطانيا العظمى بنصيبها « بحق الغزو » . في الوقت الذي عرّف فيه السودان في مادتها الأولى « بأن مصر قد فقدته مؤقتا » وصعب أن تتفق إحدى الجملتين مع الأخرى . أما النتيجة العملية لهذه الاتفاقية فلم تختلف قط عن ضم السودان لانجلترا إلا في أن مصر دفعت بسخاء نظير تلقيها بلقب الشريك . ثم حكم السودان حاكما عام اقترحت اسمه بريطانيا العظمى وعينه خديوى مصر وراحت مصر ترسل جزءا من الحامية وتسد عجز الميزانية البالغة نحو مليونين من الجنيهات في العام .

ولا يمكن أن يبرر هذه الاتفاقية — على عظم فائدتها لبريطانيا العظمى — إلا العمل المخلص المجرد من الأنانية الذى تمكن به الموظفون البريطانيون من جلب السلام والرخاء لذلك البلد ، على أنه طالما بقيت مصر نفسها طفلة تتعلم

السير فيسینظر إلى الحكم البريطاني في السودان نظرة الرضا كما سيرمى بالقليل من النقد وأما إذ نمت روح الوطنية المصرية فقد بات من الطبيعي أن توضع مثل هذه الاتفاقية التي قامت من جانب واحد موضع البحث من جديد . ومع ذلك فلم يستخدم الساخطون مسألة السودان بوجه خاص لإلهاب المشاعر ضد بريطانيا العظمى إلا بعد أن أزال تصريح سنة ١٩٢٢ كثيرا من أسباب التذمر السابقة ومن بعدها لم تضيع فرصة لاتهامها بسوء النية وإثارة سوء الظن بها كما حدث مثلا حين فسرت الصحافة المصرية زيارة اللنبي للسودان بأنها مقدمة لضمه لبريطانيا . ثم انتهى الأمر في النهاية بهذا السلاح أن كثر استعماله وأن أدى إلى تلك الجريمة الكبرى والنكبة الفادحة .

وكانت المضايقة الثانية لل لنبي هي حملة القتل التي وجهت ضد البريطانيين فقد وقع في خلال سنة ١٩٢٢ اثنا عشر هجوما على الإنجليز في القاهرة ، قتل بسببها أربعة وجرح تسعة ، وذلك إلى قتل اثنين من كبار المصريين . ولقد كانت حوادث القتل هذه كما ظهر بعد ذلك من عمل عصاة صغيرة يحررها قليل من المتعصبين الحسنى الثقيف . وقام بحوادث القتل التي نفذت بعض ضعاف العقول من الطلبة من طبقة الأفندية وعدد من السفاحين المأجورين من المجرمين المحترفين . وربما كانت أغراض العصاة ، فيما يظن إما تهديد البريطانيين وإما دفعهم إلى الانتقام . ولكن لم يتخير هؤلاء الضحايا لأهميتهم هم أو لعداء عرفوا به لمصر وإنما لمجرد توفر الأمن في اللحظة التي يتم فيها قتلهم فما أيسر أن تدرس الحركات اليومية لبعض الموظفين أو الضباط الإنجليز وأن يكتشف المكان الأمين الذي يمرون به يوميا في إحدى الساعات المعينة

وأن يتعقبه في الظلام أو حتى في النهار رجل ثم يصيبه من الخلف ، وساعدهم على ذلك كره الرجل الانجليزي لحمل السلاح ولا اتخاذ احتياطات من الاحتياطات وبذلك لم يخاطروا باحتمال مقاومة من الضحية لأنها عزلاء وتصاب من الخلف ولا من رجال البوليس لأنهم يهربون قبل أن يصل البوليس ، ولا من الجمهور لأنهم يتخبرون اللحظة التي لا يمر فيها واحد من الانجليز أو الأجانب المحترمين بل لقد ضرب أحد ضحايا البريطانيين بالنار في مكان عام وأمام بعض الحوانيت فصرح أصحابها بأنهم لم يروا ولم يسمعوا شيئاً ، ثم عشر فيما بعد على شهود الحادث الحقيقيين بمحض الصدفة . وهذا الموقف الذي وقفه الجمهور المصري كان العامل الرئيسي الذي منع من تقديم هذه العصابة إلى القضاء بسرعة ، إذ لم يعاونوا البوليس أية معاونة لا بمحاولة القبض على القتل وقت حدوث الجريمة ولا بإعطاء المعلومات فيما بعد . ولم يكن ذلك تأييداً منهم لأولئك القتلة ولكن خوفاً من الإرهاب والانتقام ، وليس ذلك اعتباطاً ، إذ هم حاولوا فعلاً في بعض الأحيان قتل من قدموا ضدّهم المعلومات أو عاونوا عليهم رجال البوليس .

ولو أن عدد جرائم القتل كان صغيراً إلا أنها أثارت شعور الغضب وعدم الاطمئنان في نفوس الجالية البريطانية ، إذ أضجرتها عجز الجهات المسؤولة عن وضع حد لهذه الجرائم أو القبض على القتلة حتى لقد أيد بعض متطرفيها ضرورة القيام بأعمال انتقامية واجراءات شديدة أخرى ، وكادوا جميعاً يتفقون على أن أساليب اللبّي لم تكن لها القوة الكافية . ولكنه احتفظ برزائته ورفض أن يندفع في أعمال العنف الغير مجدى . ربما كان قد تذكر فاجعة دنشواى المشنومة التي وقعت قبل ذلك بستة عشر عاماً عندما وصمت القسوة المفرطة

السمعة البريطانية في مصر وصمة خطيرة. وأمر باتخاذ كل وسائل الحيلة الممكنة فخرس الجنود البريطانيون الطرقات وزيد عدد رجال البوليس وحمل البريطانيون الأسلحة، ومع ذلك فقد دلت كل الأخبار التي حصل عليها على أن المصريين — في معظمهم — لم يقرروا القتلة وأنه من المحتمل ألا يكون لأعمال الانتقام ذات الصبغة العامة أثر ما. بل سيؤدي القبض فقط على تلك العصاة الى زوال مفعولها السام، ولم يأت الوعد بالمكافأة التي ارتفعت إلى آلاف جنيه لمن يدلي بالمعلومات بنتيجة ما. واقترح مكتب الأجانب الاستيلاء على بعض مصادر الدخل لتعويض الضحايا في هذه الاعتداءات، فأجاب على ذلك النبي بان هذا لن يزيد في طمأنينة الانجليز بل سيقضي على كل فرصة لحسن التفاهم مع المصريين. بينما دفع التعويض السخي من قبل لتلك الضحايا. ثم اقتفت جماعة خاصة عينها النبي برئاسة موظف انجليزي منتق أثر تلك العصاة حتى أماطت عنها اللثام في النهاية كما سيأتي بعد. ولكن ظلت هذه الاعتداءات يومئذ مصدرا مستمرا للمقلق والغیظ.

ثالثا: الملك فؤاد — ولسوف تسجل المبارزات التي وقعت بين النبي وبين ذلك الملك الحاذق الطموح حول الدستور والأمور الأخرى في حينها من سياق القصة، كان ينطوي كل من الطرفين المتنازعين على الميل والاحترام للآخر. وكانت لهما بين الجولات مناقشات تغلب عليها المودة في مواضع يشتركان في الشغف بها كأديان الانسانية المتعددة، ولقد قدر النبي ذكاء الملك كما احترم الملك وفاء النبي.

ولقد بدأت الجمعية التي اجتمعت لاصدار الدستور برئاسة رشدي باشا — وهو رئيس الوزراء مدة الحرب — عملها في ابريل واستمرت فيه حتى

نهاية الخريف . وأثارت مسألة السودان في المرحلة الأولى جدالاً حاداً مع الحكومة البريطانية . فلقد عرف السودان في المادة الأولى بأنه جزء متمم لمصر ووضع ملك مصر على أن يكون كذلك ملكاً للسودان . ومن الصعب أن ينتظر من الحكومة البريطانية أن تسمح بهذه المحاولة لتغيير اتفاقية سنة ١٨٩٩ وبايجاد سابقة حكم قبل درس هذا التحفظ وبذلك أصر اللنبي على أن تستبعد هذه المواد في الحال . فراح الوطنيون المصريون يصبون طوفاناً من غضبهم بالخطب والمقالات ولكن ظل اللنبي والحكومة البريطانية ثابتين . ثم رأى الملك فؤاد الفرصة سانحة ليجتذب إليه حب الشعب بتأييد وجهة النظر الوطنية .

ولقد اتخذت الجمعية من النظام البلجيكي أنموذجاً لها فصاغت الدستور على أسس حرة . فاتفق على أن ينشأ مجلس نواب منتخب — على الأقل من الناحية النظرية — على قاعدة شعبية واسعة ، ومجلس شيوخ ينتخب بعضه ويعين بعضه الآخر . وعلى أن يوضع الملك في مركز الملك الدستوري الدقيق واستقال ثروت في نهاية نوفمبر بسبب مشكلة السودان .

وفي نفس هذه اللحظة العصبية أيضاً سحب عدلى — الجبان الذي لم يرد أن يتحمل نصيبه من المقت بالموافقة على تعريف السودان ذلك التعريف الذي أصر البريطانيون عليه وزبما قد روعه قتل اثنين من زعماء الأحرار — سحب تأييد حزبه لثروت ، ثم استدعى الملك توفيق نسيم ليحل محله في الوزارة .

لم يكن رئيس الوزراء الجديد على كفاءة متمتازة لكنه كان أميناً جداً يخضع لتأثير القصر ويميل إلى الاستجابة للرغبات الملكية .

وإن ماناله عمل ثروت من الثقة لأقل مما كان يستحقه . فلقد واجه بنفسه الواجبات الصعبة لافتتاح النظام الجديد بشجاعة وعزم ، ولم يكن عليه فقط أن يحل بعض المشكلات الشائكة مع الإنجليز كمواد السودان ، وتعويض الموظفين الأجانب والأمر بحماية الضباط ليتيسر بذلك إلغاء الأحكام العرفية — وفي كل منها كان معرضاً لأن يجلب على نفسه مقت أبناء وطنه — بل كان عليه أيضاً أن يفتح عهداً جديداً من الحكم ، وأن يعود على واجبات الوظيفة طبقة تكاد أن تكون عديمة المران والخبرة في تحمل المسؤولية واستعمالها بمفردها . ولم يدرك واحد أبداً — ولا حتى ممن تتبعوا تاريخ مصر الحديثة — مدى التغير الذي حدث — فالطبقة الحاكمة في مصر قبل الاحتلال البريطاني كانت كلها من الوجهة العملية من أصل تركي ثم فقدت بعد ذلك هذه الطبقة في خلال الأربعين عاماً من الحكم البريطاني روح السيادة فيها وأخذت تتجه إلى نواح أخرى من النشاط . أما الوطنيون المصريون الذين يتوقون الآن إلى توجيه شئون بلادهم فكانت تنقصهم — غالباً — الشجاعة الأديبية الضرورية كما تنقصهم روح المسؤولية إذ طالما ألقوا الاعتماد على النصيحة البريطانية في كل إشكال يواجهونه أما الآن فقد أحسوا بالضياع عندما افتقدوا هذه النصيحة . ولقد كان من سياسة النبي — كما ذكرنا آنفاً — أن يضطرهم إلى مواجهة مشاكلهم وأخطارهم بأنفسهم حتى لقد خاطر بنفسه لكي ينفذ سياسته هذه .

ولم يكن الزمن بالمناسب لمثل هذه التجربة فلقد انهكت سنوات الحرب الأربعة والاضطراب الذي أعقبها في السنوات الثلاث التالية أداة الحكومة التي نقل منها المستشارون الأجانب الآن بسرعة أملاها الشعور الوطني أكثر

بما أملتها الحكمة الإدارية . وقدمت الحوادث التي وقعت في تركيا في خريف تلك السنة قوة دافعة أخرى الى جانب الوطنية والرغبة في إنهاء الأثر البريطاني فلقد هزمت اليونان في أغسطس وسبتمبر هزيمة ساحقة طردوا على أثرها من الأناضول فهلل المصريون لهذا الحدث باعتباره نصراً للإسلام على النصرانية وباعتباره هزيمة للانجليز . ولكن أدى ثبات الانجليز في خانق الى استعادة كرامتهم كما أيدت موقفنا الحربي مهارة سياستنا في نوفمبر بمؤتمر لوزان الذي أقيم لتنظيم معاهدة السلام مع تركيا . ولقد أثارت مسألة تمثيل مصر في هذا المؤتمر كثيراً من المباحثات السياسية وكانت لاتزال بغير حل عند ماسقطت وزارة ثروت .

لقد زخر هذا العام بالحوادث الهامة حتى لم يستطع النبي السفر الى إنجلترا في إجازته ، ثم ماتت في الخريف أمه - التي كان خلقها أثر كبير في تكوين خلقه هو - والتي كان يحبها كثيراً - وهي في الثامنة والتسعين . ولقد رد النبي على أحد أصدقائه بهذه الكتابة التي تميزه :

« تقبل تشكراتي الكثيرة على خطابك الحنون الرحيم بمناسبة وفاة والدتي لقد ماتت بعد أن بلغت أقصى العمر والشرف وقد احتفظت بكامل قواها العقلية وشغفها التام بكل شيء حتى آخر لحظة تقريباً . لقد استبقتني مصر هنا هذا الخريف لكي رأيتها في الربيع الماضي وليس لي إذن ما آسف عليه . ولقد قابلتها ما بل في الشهر الماضي وأسلمتني آخر رسائلها » .

ولقد اكتشف هوارد كارتير الذي كان يموله لورد كارنارفون ذلك الاكتشاف التاريخي لقبر توت عنخ آمون في نوفمبر وكان النبي واحداً من القلة المحظوظة التي فتحت القبر في حضرتها وبذلك كان من الأوائل الذين

شاهدوا الكنز العجيب الذي كن مذخوراً فيه .

ثم انتهت سنة ١٩٢٢ هذه الحافلة بالأحداث بمذكرة تهديدية وبجريمة وحشية حمقاء . إذ ضرب بالرصاص في ٢٧ ديسمبر الدكتور روبسون المحاضر بمدرسة الحقوق والذي كان معروفاً — على وجه الخصوص — بشدة صداقته للمصريين . قتل في وضح النهار بينما كان عائداً على دراجته من عمله الى بيته . ولقد أثارت هذه الجريمة أعمق الشعور بالغضب في نفوس الجالية البريطانية وكان معظمه موجهاً ضد ضعف النبي المزعوم .

الفصل السادس

١٩٢٣ - سنة تقدم

الكلاب تدبح ولسكن القافلة تسير

مثل شرقى

ابتدأت سنة ١٩٢٣ التى كان يجب أن تسكون سنة مشمرة فى تاريخ التقدم السياسى بظروف سيئة. فكانت مشاكل اللبى الثلاث لا تزال قائمة، إذ لم تغير حتى الآن المواد الخاصة بالسودان تغييراً ملائماً، كما ظل مقتل روبسون مخيماً على العلاقات بين المصريين والبريطانيين من ناحية وبين الجالية البريطانية ودار المعتمد البريطانى من الناحية الأخرى.

ثم عقد اجتماع للبريطانيين عظيم فى فندق شبرد بالقاهرة فى ٢ يناير ليحتجوا فيه على استمرار حملة الاغتيالات ولطلب اتخاذ إجراءات قوية للقمع، بينما أعلن اللبى لرئيس الوزراء أن الأحكام العرفية ان تلغى طالما استمرت تلك الاعتداءات، وأنه لا بد من دفع غرامة لأرملة القتيل، وأنه يجب تقوية الإجراءات البوليسية، وأن دوريات الفرسان البريطانية ستعاود حراسة الشوارع فى نفس الوقت.

ثم قفزت مسألة السودان إلى المقدمة فى أوائل فبراير. فلما وجد اللبى

تصميم الملك فؤاد على ان يسمى ملك السودان اضطر إلى طلب الاجتماع به ليصر امامه على وجوب مراعاة وجهة النظر البريطانية ثم وقع الملك الوثيقة التي قدمها للنبي . وبعد ذلك بيومين قدم توفيق نسيم استقالته عند ما ادرك ان الصيغة الخاصة بالملك في الدستور لن تمر بغير اعتراض . ولذلك أنه مولاة . واعتبره جباناً .

واستمرت البلاد بعد ذلك خمسة أسابيع بغير حكومة . وظهر أولاً أن عدلى سيسهل الوزارة ، لكنه جعل إلغاء الأحكام العرفية شرطاً لقبوله للحكم . ودلت الاعتداءات المتعددة بالقنابل على الجنود البريطانيين على أنه لا يمكن إلغاء الأحكام العرفية في تلك اللحظة . ولما كان عدلى لا يرغب كعادته في مواجهة المضاعف وغضب الشعب فقد رفض العمل . وبذلك ترك منصب رئيس الوزراء الذي لم يجلب فيما ظهر نفعاً لصاحبه ليتولاه رجل غيره معروف نسبياً هو يحيى باشا ابراهيم . كانت تنقصه مقدرة ثروت ونفوذ عدلى لكنه كان وطنياً نزيهاً كما كان غير عادى في شجاعته وعزمه .

ومع أنه تولى منصبه في منتصف مارس إلا أنه نجح في إصدار الدستور الجديد بصيغته الأصلية بعد ذلك بشهر . ولقد شاهد هذا الشهر صراعاً مستمراً لعب فيه النبي دوراً عظيماً . فلقد أمكن في عهد وزارة نسيم تغيير مسودة الدستور تغييرات عدة زاد بها الملك من سلطته وامتيازاته ، وسرعان ما تجلّى أن رئيس الوزراء الجديد لن يقدر على إرجاع النص الأصلي للدستور ما لم يلق المعاونة في سبيل ذلك . ومن هنا صمم النبي على أن يقف بنفوذه إلى جانب الشعب .

وكانت الخطوة الثانية إلغاء الأحكام العرفية . ولم تكن بالمسالة الهينة كما قد يظن ، إذ لا بد من إصدار قانون يمنع الرجوع فيما سبق اتخاذ قرار فيه في ظل الأحكام العرفية ، وكان من الضروري كذلك أن تسد بعض الثغرات في التشريع المصرى لتنظيم بعض المواد التي كان يعالجها القانون العرفى ، كاحتفاظ بالسلطة فى تنظيم الاجتماعات العامة واتخاذ بعض الاجراءات لضمان سلامة الدولة إذا طرأ ما يدعو الى ذلك فى الحال . ولقد صدر القانون بمنع الاجراءات التي تتعرض للمسائل السابق اتخاذ قرار فيها فى ظل الأحكام العرفية فى ٥ يولية وصدر فى نفس الوقت من القائد العام إعلان بإنهاء القانون العرفى الذى استمر العمل به منذ ٢ نوفمبر سنة ١٩١٤ . ولكن على الرغم من اتهام القانون العرفى بالصرامة والاستبداد فإنه لم يتدخل من الناحية العملية فى حياة الموظفين العاديين إلا تدخلا طفيفا لا يعتد به . ولقد حدث أن طبق هذا القانون فى بعض الأحوال الغريبة ، فمثلا نظمت بأمر منه الإيجارات بين المستأجرين وبين ملاك الأراضى ، كما منع به الاستغلال ، كذلك اضطر الأجنبىين بأمر آخر إلى دفع بعض الضرائب المصرية التي لولا القانون العرفى لعوفوا منها بسبب الامتيازات . بل إن أللنبي قدم الميزانية المصرية مرة بأمر عسكرى حين لم تكن هناك وزارة قائمة لتفعل ذلك . وانحصر فى النهاية تطبيقه عمليا على التمكين به من محاكمة المعتدين على رجال الجيش أمام المجالس العسكرية . إلا أن الغاءه من غير شك يعتبر خطوة مهمة فى تقدم مصر نحو الاستقلال .

أما الخطوة الثالثة فكانت إعداد قائمة التعويضات التي ستدفع للموظفين الأجنبىين — ونصفهم من البريطانيين — الذين سيحل محلهم موظفون من

المصريين . ولقد قدرت هذه التعويضات — التي كانت بالطبع ذات أهمية عظيمة عند الجالية البريطانية — بسنخاء كبير قد يكلف الخزانة المصرية من ٦ الى ٧ مليون من الجنيهات . وربما ظهر ذلك ثمناً فاحشاً للتحرر من المساعدة الأجنبية ، وكذلك انتقدته الصحافة المصرية . ومع هذا فلم تكن تلك الشروط مرهقة بحال ما حيث خدم المستشارون الاجانب مصر بأمانة وجد على أن ماتبقى في الخزانة المصرية من الاحتياطي الذي بلغ ١٨ مليوناً في آخر سنة ٢٣ / ٢٤ المالية ليثبت أن مصر لم تنتهب .

والآن تحققت أغراض النبي المباشرة : فقد صدر الدستور في الصيغة المقبولة ، وألغى القانون العرفي ، وحلت مسألة تعويض الموظفين الأجانب حلاً مرضياً . وبدا التوقف في حملة القتل في تلك الفترة فقد قبض على ١٤ طالباً قدموا للمحاكمة في يونيه وأدين من بينهم ١٣ أعدم ٣ منهم فيما بعد .

وبدا مستقبل مصر وكأنه رهن يديها . فلسوف تبحث مسألة التحفظات — عند ما ينتخب البرلمان — ويمكن بعدئذ الوصول إلى تسوية نهائية ودية للعلاقات المصرية البريطانية ، ثم سافر النبي بالأجازة إلى وطنه إلى أن تحدث هذه الانتخابات وبقى بانجلترا من أغسطس حتى نهاية اكتوبر منفقاً معظم وقته في صيد السمك كعادته إذ كان ذلك هوايته المفضلة .

ولقد حان الوقت للعودة الى المصري الذي كان ، ولا بد أن يكون ، المعارض الأول للنبي في سبيل الوصول إلى تسوية للعلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر ، ولنتذكر انه قبض على سعد زغلول في أواخر ديسمبر سنة ١٩٢١

لتحريضه على الإخلال بالنظام وانه اعتقل منذ ذلك في عدن ، ثم حمل من هناك على ظهر الباخرة كليما تيس Clematis في ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ - أي يوم التصريح باستقلال مصر - وأبحر به إلى جزائر سيشل Seychelles في اليوم التالي . ولقد كان هذا النقل مقررا قبل ذلك ببعض الوقت ، وكان قد اختير ميعاده بمحض المصادفه . ولكن زغلول اشتكى من اختيار ذلك اليوم بالذات ميعادا لفيه إلى جزيرة غير صحية بالقرب من خط الاستواء ، ولكن لم يكن في الواقع جوها غير صحي ولو أنه كان شديد الرطوبة بالنسبة لزغلول إذ كان يشكو من رئتيه . وبذلك نقل إلى جبل طارق في أوائل خريف سنة ١٩٢٢ . وظل هناك حتى نهاية مارس سنة ١٩٢٣ عند ما أطلق سراحه ، حيث لم يبق ما يمنع من عودته إلى مصر بعد أن ألغى القانون العرفي . وفي ١٨ سبتمبر نزل إلى البر في الاسكندرية بعد أن نفي حوالى العامين . ولقد حظى - كما كان طبيعيا - بترحيب صاحب من عامة الشعب في حين أعلن كثير من قادة المصريين عن تأييدهم له أمام الجمهور وأن كانوا يستشعرون الخوف من ناحيته في سرائرهم . وظهر زغلول معتدلا أول الأمر في تصريحاته ، لا يتحدث الا عن وحدة الأمة ، ولمكن ما أسرع ما تغيرت حاله ، إذ طفق ينقد كل شيء حدث في فترة غيابه ، وبدأ همه الوحيد أن يمحو كل تقدم عاد فيه الفضل إلى شخص سواه ، واتضح مرة ثانية غروره وعناده ، ثم مرض في اكتوبر واعتكف شهرين في مرضه وكان حزبه في هذه الأثناء قد نجح في الانتخابات الأولى نجاحا ساحقا .

ثم عاد للنبي في أوائل نوفمبر إلى مصر ليجد الموقف السياسي وقد غدا معقداً ،

فقد اتضح أن يحيا باشا رئيس الوزارة رجل متعب ، ووازرتة عاجزة ،
بينما فسدت إدارة البلاد بعد أن أبعاد عنها المستشارون الأجانب . وانتهر
الملك ضعف الوزارة ليزيد من نفوذه حتى أصبح الآن يتمتع بالسلطان الهائل
وبات الخلاف بينه وبين زغلول محتمل الوقوع . إن كل شيء في أواخر
سنة ١٩٢٣ كان يدعو إلى الكثير من التفكير والقلق . ومع ذلك فكان
يبدو على حملة القتل أنها توقفت .

الفصل السابع

١٩٢٤ : عام زغلول

— نصر ، كارثة ، أفول —

كانت سنة ١٩٢٤ في مصر عام زغلول ، فلقد طلعت عليه وهو سيد مصر الأعلى لو استثنينا القوة الساهرة لبريطانيا العظمى وراء الموقف . وكان في اعتقاده أن يستطيع شل هذه القوة بمفاوضاته مع حكومة العمال التي تألفت في إنجلترا منذ عهد قريب ، ولكن أظهره تصريف العام في قدرته الحققة ديماجوجيا له القوة في إلهاب الجماهير دون الشجاعة أو الحكمة في قيادتها ، وحاكما غيوراً بغير الحنكة السياسية أو الإدارية ، ومفاوضاً ظناناً ضيق الأفق لا كفاءة عنده في التفاهم . ثم عجلت بسقوطه — الذي لم يكن بد من حدوثه بسبب هذه العيوب إن عاجلاً وإن آجلاً — آخر العام جريمة يعتبر فشله في قيادة أنصاره مسئولاً عنها إلى حد كبير . وانتهى العام بالتخلص منه — في الواقع — كشخصية رئيسية في محيط السياسة المصرية كما سبق له ذلك مدة طويلة ولو بقي اسمه بعد ذلك يحتفظ بتأثيره في الشعب . لقد وضعت أول محاولة للحكم الوطني في مصر منذ آلاف السنين في الكفة فشالت به .

ابتدأ العام ولا تزال وزارة يحيا في الحكم ولو أنها خضعت — تماماً — لمشيئة الملك فؤاد . ولما أدرك بفطنته أن انتصار الزغوليين في الانتخابات أمر لا مفر منه راح يعلن عن مجاملته للوفد ، ومع ذلك فقد كان يؤمل في

خلق معارضة قوية من أصحاب الأملاك ربما تتألف منها نواة حزب ملكي في يوم ما . كان يوم ١٢ يناير اليوم المحدد لأول انتخابات لبرلمان مصر الجديد فسافر ألنبي في ٧ يناير برحلة إلى السودان ظناً منه أن الحكمة تقتضيه التغيب في أثناءها وترك مهام دار المعتمد يتولاها الوزير كير Kerr مدة غيابه .

ولو أنه لم يكن هناك شك أبداً في نتيجة الانتخابات إلا أن نجاح الزغوليين التام قد أدهش الجميع ، الملك ودار المعتمد والمعتدلين من المصريين بل والزغوليين أنفسهم . إذ أعلن في مجلس النواب ١٩٠ عضواً من أعضائه البالغ عددهم ٢١٤ عن تأييدهم لزغول . حتى ان رئيس الوزراء نفسه سقط في الانتخابات ثم قدم استقالته بعد قليل . لقد كانت مدته في الحكم مدة مشمرة لما أظهر من شجاعة وبصر بالأمور إذ شهدت فترته إصدار الدستور وقانون الانتخاب وإلغاء القانون العرفي - مما مكن من رجوع زغول - كما شهدت جل مسألة تعويض الموظفين الأجانب الشائكة . وقد قلبت استقالة يحيى باشا مشروعات الملك رأساً على عقب إذ كان يعتمد على بقاءه في الحكم ريثما يتم اختيار الأعضاء المعينين في مجلس الشيوخ . وبذلك اضطر الملك أن يطلب من زغول تأليف الحكومة وأن يرضى بالتالي عن يرشحهم لتعيينات المجلس . وحل ٢٧ يناير سنة ١٩٢٤ فاصبح زغول أول رئيس وزارة لمصر في ظل الدستور الجديد . وتولت الحكم في إنجلترا في نفس الوقت تقريباً أول حكومة للعمال رأسها رامزي مكدونالد واحتفظ بوزارة الخارجية مع رئاسته للوزارة ، وكانت له بزغول معرفة شخصية وكثيراً ما كان يعبر عن ميله لتحقيق آمال مصر في الاستقلال التام كما فعل آخرون من أعضاء حزب العمال . ولقد بدا زغول في الحق يومها في ذروة النجاح . كانت له اليد العليا في السياسة المصرية ، بينما غلب الضعف على الأحرار وبقية الأحزاب الأخرى ، حتى

الملك لم يطمع في معارضته فوق صداقة الحكومة البريطانية له وميلها اليه . بل إن دار المعتمد التي لم يكن له صلة رسمية بها منذ ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ - يوم بدأت زيارته للسير ريجنالد وينجت معركة استقلال مصر - راحت تخطب وده . فلما رأى كير Kerr من المستحسن أن يتصل بزغلول قبل أن يصبح رئيساً للوزارة ، زاره زيارتين خاصتين غير رسميتين ونجح خلالها في إزالة الشك من نفسه وفي جعله يتأكد من حقيقة الدور الذي لعبه اللبني في سبيل الحصول لمصر على مثل ذلك الدستور الحر . بل ان اللبني نفسه توجه لزيارة زغلول بعد عودته مباشرة من السودان رغم جريان العادة بضرورة زيارة رئيس الوزراء له أولاً . فتأثر زغلول بهذا التكريم وتربى منه شعور عنده بالإعجاب والحب لللبني وظل محتفظاً به إلى النهاية ولو أنه لم يكن متبادلاً .

وفي نفس الوقت قوبل أول طلب لزغلول من البريطانيين بالعفو عنم كانوا الايزالون في السجون بمن صدرت ضدهم أحكام المجالس الحربية البريطانية بترحيب عده الكثيرون في مصر ترحيباً زائداً ، بل لقد وافقت الحكومة البريطانية على عفو أبلغ في كرمه مما طلبه زغلول أو توقعه وكان مثل هذا الوقت مما يبشر بسهولة المفاوضات للوصول إلى حل لمسائل التحفظات . ثم عبر زغلول في أوائل مارس - قبل افتتاح البرلمان - عن رغبته في السفر إلى لندن في موعد قريب للمباحثة في المسائل المتعلقة بين بريطانيا ومصر .

ولم يصادف اقتراحه أول الأمر قبولا في نفس مستر ماكدونالد إذ كان يفضل لو نوقشت في مصر النقط العامة لهذه التسوية على أن يسافر زغلول إلى لندن فقط في حالة الوصول إلى الاتفاق . ولكن صمم اللبني على أن تكون

المفاوضات في لندن . فقد كان مقتنعا باستحالة القيام بمناقشات مثمرة في جو القاهرة الصاخب حيث زغول معرض للضغط الدائم من المتطرفين ، وقال سنجد أنفسنا في الحقيقة لا نفاوض زغول وإنما سنفاوض عامة الشعب والصحافة . كما لم يكن من الحكمة في الوقت الذي تعلق فيه قلوب زغول وأنصاره بالسفر إلى لندن أن يأسوا من ذلك . ثم تم استعداد زغول . إن أى تسوية يعقدها ستحظى بالموافقة من مصر كلها وكلها أسرع بالمفاوضات كلها طالب ذلك . ثم أرسل مستر ماكدونالد الدعوة لزغول بالسفر إلى لندن بعد مناقشة قصيرة .

ومع ذلك فما أسرع ما تبين أن زغول إنما كان يعنى إملاء لمطالب مصر أكثر مما كان يقصد المفاوضة فيها . وحتى لو كان هو مستعدا للتعقل فسيرغمه صياح المتطرفين ، الذى لم يقم بشئ لآخماده ، على إتخاذ موقف لا يستطيع التقهقر منه ، وبخاصة في مسألة السودان .

ويعتبر يوم ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ الذى حدد لافتتاح أول برلمان دستورى لمصر يوم فرح عظيم عام في القاهرة ، فلقد ثابرت فيه الجماهير على زئير مستمر من الهتافات حتى بلغ بها الحماس درجة الجنون عندما بدت لأعينهم العربية الملكية وفيها إلى جوار الملك فؤاد مليكهم ، زغول معبودهم ، من تحدى الاستعمار البريطانى ، ومن قاد الجماهير وشجعها على طلب الاستقلال ، والذى نفي مرتين ، أما الآن فما هو ذا رئيسا للوزراء .

ومن المهم أن نتأمل مشاعر الشخصيات الأولى في احتفلات ذلك اليوم : زغول وألنبي . فزغول نفسه لا بد أن اعتلج صدره بمزيج عجيب من المشاعر ، فلا بد أنه أدرك تناقض موقفه إذ كان يقود برلمانا أقامه تصریح

٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ فى نفس الوقت الذى رفض هو فيه ذلك التصريح
رفضاً باتاً ، ولكن لم يكن بد من العثور على طريقة للافلات من هذه الورطة
وربما فسر ذلك هتافات الجماهير المتكررة « النيل لا يتجزأ » ، « السودان » .
وقليل من قدر ، وأقلهم زغلول نفسه ، ألام ستؤدى كل هذه الهتافات .

وكان أَلنبي فى ثياب الفيلد مارشال شخصية رائعة كعادته . وشعر بالغبطة
وهو يراقب المنظر ، إذ يرى السياسة البريطانية التى تجسمت فى تصريح ٢٨
فبراير وهى تسلك سبيلها المطلوب ، ويرى الوعود البريطانية وهى تتحقق
بأمانة رغم جميع الصعوبات ؛ فأقيم برلمان حر تستطيع أن تخرج مصر فيه رجال
دولة لهم السلطة المطلقة لربط بلادهم بأية تسوية مع بريطانيا . ثم راح ينظر
من شرفة رجال السلك السياسى بمجلس النواب ، إلى الملاح الجامدة التى
توحى بعدم التفاهم فى وجه الديماغوجى زغلول ؛ لقد كانت المصاعب وشيكة
الحدوث ، ولكنها إن حدثت يومئذ فستحدث بأيدي المصريين . ولكن بقى على
أَلنبي أن يرى الى أى مدى ستؤثر أو ستؤخر هذه المصاعب التسوية الانجليزية
المصرية التى كافح بإخلاص من أجلها .

ونظمت حتى فى حفلة افتتاح البرلمان المظاهرات ضد الحكم البريطانى
فى السودان ، وما فتئت حقوق المصريين فى إدارة السودان التامة موضوع
التهيب فى البرلمان والصحافة واستمرت الدعاية فى السودان نفسه بغير هوادة
وبعنف خطير . وثمة علامات أخرى مزعجة . فقد قتل فى ابريل طالبان
مصريان جاويشا من قوة الطيران الملكى ، وكانت هذه أولى الحوادث من
نوعها من منذ سنة تقريبا ، كما هوجم فى البرلمان بعنف مركز السير لى ستاك

كسردار للجيش المصرى ، ورفض البرلمان الموافقة على الدفعة السنوية التي تدفعها مصر لجيش الاحتلال ، ورفضت الموافقة على قرار تعويض الموظفين الأجانب الذي أصدرته وزارة يميا ، وهددت الأمور بخلق أزمة في أواخر يونيه عند ما أعلن لورد بارمور في مجلس اللوردات أن الحكومة البريطانية لم تكن لتتوى التنازل عن مركزها في السودان ، فلقد أثار هذا الاعلان الاحتجاجات والمظاهرات في مصر ، وصرح زغلول في مجلس النواب بأنه لن يمكن كسب شيء بالمفاوضات مادامت هذه وجهة النظر البريطانية ، وبأنه نوى أن يستقيل . ولكن لم تكن استقالته بالجدية على الرغم من تقديمها للملك إذ سرعان ما أقنع باستمراره في الحكم . ثم خفف من حدة هذا التوتر التصريح السلمى الذى أدلى به مستر رامزى ماكدونالد في مجلس العموم ، واعدت بعد ذلك العدة لعقد اجتماع في لندن في نهاية سبتمبر .

وبينما كان زغلول في ١٢ يوليه يغادر محطة القاهرة إلى الاسكندرية في طريقه الى أوروبا أطلق عليه أحد الطلبة رصاصة أصابته بجروح ، ولكن لم تترك هذه الحادثة سوى أثر سياسى ضئيل ولو أنها أجلت سفر زغلول للاستشفاء في فرنسا الى نهاية يوليه .

ولم يكد يبتدىء أغسطس حتى كانت الدسائس المصرية فى السودان قد أثمرت ثمارها السامة ، فقام طلاب المدرسة الخربية فى الخرطوم بمظاهرات مسلحة إلا أنها أخمدت فى الحال وبغير ضحايا ، بينما قامت فرقة السكة الحديد المصرية فى العظيرة بمظاهرات خطيرة أطلقت عليهم فيها النار من بعض الجنود السودانين بقيادة ضابط مصرى وسقط بسببها بعض من الضحايا . ثم منع فيما بعد من حدوث مثل هذه الاضطرابات فى السودان نفسه وصول عدد

إضافى من الجنود البريطانيين وإبعاد فرقة السككة الحديد المصرية . أما فى مصر فقد بلغت الحال فيها حد التهديد بموقف أشد خطورة من ذلك ، فقد اعتقدت الصحافة والجمهور دون بحث بأن الجنود البريطانيين إنما تعمدوا إطلاق النار على المصريين ، ومع ذلك فإن محمد سعيد باشا - القائم يومئذ بأعمال رئيس الوزراء فى مصر - والذى يعلم الحقيقة تماما - لم يفعل شيئا لا لإعلان هذه الحقيقة ولا لإخماد مظاهرات الجماهير العنيفة . كل ذلك رغم الاحتجاجات المتكررة من دار المعتمد وكان اللئبى نفسه باجازه فى الوطن بينما قدمت فى نفس الوقت فى لندن مذكرة مصرية مشوهة للحقائق وبطريقة مقصودة غير لائقة فباعت بتأنيب الحكومة البريطانية الشديد ، كما صرح زغلول فى باريس باستحالة المفاوضات حينئذ مع الحكومة البريطانية وإن أعلن موافقته على القيام بمحادثات شخصية مع مستر رامزى ماكدونالد لازالة سوء التفاهم .

وفشلت المحادثات التى ابتدأت فى لندن يوم ٢٥ سبتمبر الفشل الذريع . فمن الجلى أن زغلول إنما توقع أن يحدث بمفرده رئيس الوزراء محادثه خاصة ، فلما أن وجد نفسه كذلك فى وجه عدد من مستشارى وزارة الخارجية كما لو كانت المحادثات رسمية ، غلبت عليه سمات الصلابه والعداء . ولقد وصف لورد لويد فى كتابه « مصر منذ كرومر » أول اجتماع بهذا الوصف المناسب « بعض إتهامات عديمة الأثر متبادلة عن أكثر الحوادث ضالّة فى التاريخ الحديث » ووصفته رسميا وزارة الخارجية بأنه « محادثات ذات صبغة مبدئية » .

ثم قدم زغلول فى الاجتماع الثانى مجموعة من الطلبات خاصة بجلاء

البريطانيين ، وبإبعاد الموظفين البريطانيين ، وبالنفوذ البريطاني في مصر وبتنازل بريطانيا عن أى مطلب لها في حماية قناة السويس ، وحماية الأقليات في مصر وقد عرض هذا الموضوع بتفصيل أكثر من ذلك في الاجتماع الثالث والأخير ولم تصل بالطبع هذه المحادثات إلى نتيجة ما ، إنما دلت على أن حكومة العمال تتمسك بمصالح بريطانيا الرئيسية في مصر والسودان كما تتمسك بها حكومة المحافظين .

لقد خاب من غير شك أمل زغلول وبات واجدا على رامزى ما كدونالد هذا الذى سبق له أن وقف من المطالب المصرية موقفا يغاير موقفه هذا تماما عندما زار مصر وهو شخص عادى . لقد أمل زغلول في محادثات شخصية مع صديق يميل إلى رأيه وبذلك يمهّد الطريق لاعتراف بريطاني بالاستقلال التام لمصر إلا أنه بدل ذلك وجد نفسه يقابل وزير خارجية يؤازره موظفون لا ينشون عن عزمهم وليس لديهم أقل استعداد للترشح . لا ، لم يكن التقدم في مثل تلك الأحوال ممكنا . فليس لعقل زغلول الضيق الكثير الظنون أية موهبة للمفاوضة . نعم كان في مقدوره أن يعرض أية قضية بكل قوة وأن ينزل أى صراع بكل شجاعة . ولكنه الآن توقع أن تقدم له ثمرات النصر بغير مناقشة . لقد قرر مجرى حياته غلظتان خطيرتان . الأولى غلظة الانجليز عندما رفضوا السماح له بالذهاب إلى لندن في سنة ١٩١٨ . والثانية غلظته هو حينما فشل في انتهاز فرصة العرض السخي الذى قدمه ملتر له في سنة ١٩٢٠ .

ثم عاد الى مصر في أواخر اكتوبر كل من زغلول وألنبي . وسقطت في نفس الوقت تقريبا وزارة العمال برئاسة رامزى ما كدونالد وحلت محلها

حكومة المحافظين وكان سير أوستن تشمبرلين وزيراً للخارجية فيها . لقد استهلكت العلاقات بين اللبني وما كدونالد ببعض الشكوك من الجانبين حيث مال رئيس الوزراء الى اعتبار هذا الجندي رجعياً يستعمل القوة أكثر مما يجب ، على حين كانت لللبني بعض أسباب عدم الثقة بتصريحات رامزي ما كدونالد السابقة فيما يتعلق بالمسألة المصرية . ولكن عندما فهم كل منهما الآخر عملاً معا بين مظاهر الود الخالصة ، حتى قال اللبني فيما بعد إنه وجد الخدمة في حكومة العمال أكثر يسراً منها في حكومة الحزبين الذين عمل تحت رئاستهما . ثم بدا من الطبيعي أن تكون صلواته بأويستن تشمبرلن ودية لاشترك الرجلين معا في الكثير . ولكن كما سنرى فيما بعد أساء بعض سوء التفاهم إلى تلك العلاقات فجعلها قصيرة غير سعيدة .

قوبل فشل المحادثات في لندن بالهدوء في مصر ، ولكن كان الهدوء يغطي الموقف بعض التغطية في الظاهر ، واتضح رغم ذلك لللبني وللمستشاريه أن أزمة من الأزمات لا بد أن تقع قريباً . فقد كانت هناك إلى جانب مسألة السودان مسائل عديدة بارزة أنكر فيها زغلول المصالح البريطانية كما أنكر سياسة تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ثم ظهر أنه مصمم على خفض المركز القضائي والمالي للمستشارين حتى لا يعودا بعد ذلك قادرين على شيء ؛ كذلك أعلن نيته في إلغاء إتفاقية تعويض الموظفين الأجانب ورفض دفع بعض الأموال التي سبق أن تعهدت الحكومة المصرية بدفعها .

ولقد لخص اللبني بمهارة موقف زغلول الشخصي في رسالة الى وزارة الخارجية فقال « من الواضح أن ما لن يستطيع فعله زغلول هو أن يفقد ذلك النوع من الشهرة الذي كان مدة السنوات السابقة نسمة حياته ، والذي

لم يعد يستطيع الاحتفاظ به الآن - كما كان في كثير من الأحيان السالفة -
إلا بالتطرف .

وظنى أنه راح في أواخر أكتوبر يفقد مركزه بسرعة لفشله بلندن في
الحصول على ما علم مصر أن تريده وأن تتوقعه منه وللعجز والظلم والفساد في
إدارته الداخلية ، من ناحية ، كما كان من ناحية أخرى في خطر من انفصال
بعض أنصاره المهمين من محيط الوفد الداخلى فيفقد بانفصالهم جزءاً كبيراً
من ولاء جيشه من الطلبة .

وعلى ذلك فقد كان عليه أن يفعل شيئين وقد فعلهما . ولست أشك في
قيامه بهما ضد عقيدته وربما رغم إرادته - إلى أية درجة رغم إرادته ، ذلك
مالا يمكن كشفه بالضبط - . فلكى يعوض ما فقده من التقدير العام اضطر
إلى تقوية حكمه الاستبدادى في البلد ، ولكى يحتفظ بالرجال الذين هو في حاجة
اليهم اضطر إلى توظيفهم . كان في خطر من فقد رجاله لحرصه الشديد عليهم :
فاحتفظ بهم بجعلهم أكثر قوة من قبل ، ثم خرجت من يده بعد ذلك سياسة
الحذر بازدياد قوتهم .

قبض زغلول على البلاد بيد من حديد بتعيينه بعضاً من أشد المتطرفين
من أنصاره في المناصب الهامة دون نظر إلى مقدرتهم الإدارية ، وبفصله من
يشك في ولائهم له من مديرى الأقاليم ، وباتخاذ إجراءات صارمة لقمع
خصومه السياسيين . ثم صمم بعد ذلك على خلق أزمة ما كما صمم على
حرمان القصر من القدرة على مقاومة أوامره الديكتاتورية . ونفذ ذلك في
١٦ نوفمبر باستقالة مفاجئة وبتعبئة جيشه من الطلبة والرعاع ليمروا في الشوارع

ويتظاهروا مطالبين بعودته . وبلغت مناورته غايتها بعد اجتماع دام ساعتين مع الملك إذ سحب استقالته بعد أخذه لبعض التعهدات منه . بينما كان الطلبة - جنودة المدربون - يواصلون الهتافات خارج القصر « سعد أو الثورة » فلما غادر زغلول القصر شكرهم علانية وصر فهم .

بلغ حينئذ زغلول القمة في قوته وربما كان يحلم بديكتاتورية كدكتاتورية مصطفى كمال بتركيا . فلقد بلغ من اعتقاده بقوته أن عامل رئيس موظفي ألنبي - وقد أرسل لمناقشته في الاستشارة القضائية - بخشونة وتهور مما أوجب تذكيره بأنه إنما يخاطب ممثل الحكومة البريطانية . ولكن ندر أن وقع العقاب على سوء استعمال القوة بمثل السرعة التي وقع بها هذه المرة . إذ حدثت - بعد ثلاثة أيام من انتصاره في القصر - جريمة سببها فشله في كبح عنف المتطرفين الذين لا يباليون من أنصاره . فأدى ذلك إلى سقوطه من الحكم .

فبعد الظهر بقليل من يوم ١٩ نوفمبر في الساعة الواحدة والنصف أطلق الرصاص على السردار سير لي ستاك بينما كان عائداً إلى منزله من وزارة الحربية وجرح في مواضع ثلاثة ، كما أصاب الرصاص ياوره الكابتن ب . ك من فرقة Black Watch وسائق السيارة وكان استراليا وجنديا سابقا يدعى مارش . ولقد أطلق الرصاص جماعة من الأفندية ثم هربوا في عربة تاكسي كانت في انتظارهم ، كذلك ألقيت إحدى القنابل ولكن لم تنفجر وقد ارتكبت الجريمة عندما أبطأت السيارة في منحى شارع مزدحم واصابت رجل البوليس الذي حاول متابعتهم إحدى الرصاصات - وقد اعطته الحكومة البريطانية ١٠٠٠ جنيه لشجاعته سلبها له لورد ألنبي بالمستشفى ثم قاد السائق الجريح السيارة في الحال إلى دار المعتمد حيث حمل السردار - وكان واضحا ان إصابته خطيرة - ووضع على اريكة بحجرة الزائرين .

وبقي الياور والجندي - ولم تكن جراحهما خطيرة - في البهو كل ذلك أثناء مأدبة الغداء القائمة في الدار وكان من ضيوفها مستر أسكويت. وبينما كانت لادى ستاك في حجرة الزائرين بجانب السردار وكان اللنبي وبعض الموظفين والضيوف يتناقشون في هذه الجريمة بالبهو إذ أعلن وصول زغلول في الساعة الثانية والنصف. لقد علم بالجريمة وجاء ليقوم ببعض التحقيقات. فما رآه اللنبي حتى أشار بشدة إلى الياور الجريح وإلى السائق وهو يقول « هذه فعلتك » وكاد يقوده إلى السردار نفسه لولا أن أفهمه رجاله بعدم مناسبة ذلك لوجود معه لادى ستاك. وما كان من زغلول إلا أن استدار دون أن ينطق بكلمة وأسرع بالخروج.

توفي السير لى ستاك قبل منتصف ليل اليوم التالى بالمستشفى الانجليزى الأمريكى، لقد كان رجلا ذا جاذبية شخصية فائقة، مضى عليه في مصر والسودان ٢٣ سنة وقد خدم مصر وانجلترا بإخلاص وأحبه كثيراً المصريون والانجليز واحترموه ولقد تركت هذه الجريمة أعظم الأثر في القاهرة ومصر، أما استنكار الجالية البريطانية فكان شديداً وجه بعضه لالنبى إذ اتهمه كثيرون بتخطيه حدود التحمل لهباج المصريين هذا، بينما انتشرت الدهشة والذعر في الدوائر السياسية المصرية من نتائج هذه الجريمة.

كان ٢٢ نوفمبر - يوم جنازة السير لى ستاك - يوم درامة مثيرة. فلقد استشاط بعض من أعضاء الجالية البريطانية غضبا عند ما علموا بأن زغلول والوزراء المصريين - وهم المسئولون في نظرهم عن الجريمة إلى حد كبير - سيحضرون صلاة الجنازة بالكنيسة الانجليزية، حتى قامت بينهم محاولة لإرغام اللنبي على تغيير الترتيبات التي ستتخذ، إلا انها فشلت تماما حين قال

لهم إن السردار رئيس للجيش المصرى ومستول امام الحكومة المصرية فن
الصواب والحق ان يشترك اعضاؤها فى جنازته .

ولا يمكن ان ينسى ذلك المنظر الذى كان فى كنيسة « القديسين » . فقد
ارسل الملك فؤاد ياوره نائبا عنه ، بينما لاح على وجوه الوزراء المصريين -
وعلى رأسهم زغلول - ما كانوا يحسونه من التوتر وما كانوا يرونه من
عداء لهم فى نظرات البريطانيين الموجودين بالكنيسة وازدحمت الكنيسة
الصغيرة فى نفس الوقت برجال البحرية البريطانية ، والجيش وبالمدنيين
من أعضاء الجالية ، وبرجال السلك السياسى فى كامل ثيابهم ، كما حضر
ممثلو جميع الجنسيات الأجنبية فى مصر . بينما قد تألف فى الخارج
موكب كبير يضم كل الجنود البريطانيين فى القاهرة حتى كادوا يباغون فى طول
موكبهم المقبرة نفسها كما تجمعت الجماهير الغفيرة على طول الطريق وبدا اللبني
فى داخل المقبرة ببذله الخاكية شخصية جليلة مرهوبة تشعر بوطأة الانفعال
العميق ولو أنه انفعال مكتوم . ثم وقف وحده قبالة النعش ما يقرب من
عشر دقائق ينتظر وصول لادى ستاك وابنتها . ثم حمل النعش أخيرا إلى القبر
- بعد صلاة بسيطة قصيرة - على أكتاف ثمانية من الضباط الإنجليز
من يعملون بالجيش المصرى . ولقد اشترك الأمراء المصريون والشيوخ
والنواب فى الموكب الطويل الذى كان يستغرق مروره بأحد الأماكن ساعة
من الزمن حتى كاد يخيل الى المرء أن القاهرة خرجت كلها لتشهد تلك الجنازة ،
فلما وقف اللبني بجوار المقبرة ظهر عليه التأثير الشديد كما تجلى فى وجهه أنه مقدم
على قرار خطير ، ولم يقع فى تصرف الجماهير فى القاهرة ما يمكن أن تعاب
عليه ، أما فى الاسكندرية فقد وقعت بعض المظاهرات التى كان يهتف فيها
« يسقط الإنجليز » ، وذلك خارج الكنيسة التى أقيمت بها الصلاة التذكارية .

ولكن لم تنته درامة ذلك اليوم بالجنازة ، فقد كان مقرراً أن يجتمع البرلمان في الخامسة من ظهر ذلك اليوم وراحوا ينتظرون في قلق ما سوف يتخذ من قرارات بينما ظن أن الحكومة ربما تستقيل . وراح أللنبي بدوره في دار المعتمد ينتظر بصبر فارغ برقية من وزارة الخارجية إذ كان مصمماً على تقديم الانذار النهائي للحكومة المصرية بعد ظهر ذلك اليوم . وكان قد أبرق للوطن بشروطه المقترحة وطلب منهم الرد ظهر ٢٢ نوفمبر . فلما أن انقضى الظهر ولم يأت الرد بلغ نفاذ الصبر باللنبي مداه ، فقد كان مصرأ على تسليم المذكرة لرئيس الوزراء قبل أن يجتمع البرلمان في الخامسة . كان يخشى أن يقدم زغول استقالته قبل أن يتم هو ذلك ، فلما بلغت الرابعة والربع رأى أنه لا يستطيع انتظار موافقة وزارة الخارجية أكثر من ذلك . وكان قد أمر فرقة فرسان لانسرز Lancers بأن تقف بجانب ثكنات قصر النيل بعد انتهاء الجنازة ثم أمرها الآن بالقيام بحركة استعراض أمام دار المعتمد لتحرسه في ذهابه إلى مكتب رئيس الوزراء . لقد ندر أن استخدم أللنبي الاستعراض والاحتفال ، ولعلها المرة الوحيدة التي تعمد فيها استخدام الأساليب المسرحية . ولكن كان لا يزال أمامه قرار خطير ليأخذه ، فبينما هو يغادر دار المعتمد ليركب عربته إذا بأحد موظفيه يهرع إليه . لقد وصلت البرقية التي طال انتظارها من وزارة الخارجية وراحوا يحلون شفرتها ، وكانت برقية طويلة وبذلك وضح أنها ليست موافقة تامة منهم على مقترحات أللنبي . وانتظر هو حتى إذا أدرك أنه مستحيل أن يتم حل شفرتها قبل الساعة الخامسة قرر أن يمضي في تنفيذ إنذاره بغير تردد فسار - ببذلته الرمادية العادية - بين حرسه من اللانسرز يقصد رئيس الوزراء ، وكان مكتبه في مواجهة دار مجلس النواب حيث راح النواب يتجمعون فيه انتظاراً لعقد الجلسة . وبعد أن تلقى من الفرسان تحيتهم وصدح موسيقاهم

دخل ألنبي البناء واتجه رأساً إلى غرفة رئيس الوزراء . ثم قرأ عليه بالانجليزية نص مطالبه وترك له ترجمتها الفرنسية ، ثم عاد لعربته . وتلقى من الفرسان تحية أخرى أمام الجماهير المتجمعة ورجع وسط حرسه في بطة إلى دار المعتمد ، ليعلم من البرقية الجديدة إلى أي حد كان عمله هذا موافقاً أو غير موافق لرغبات حكومته .

وكان هذانص إنذار ألنبي :

لقد قتل الحاكم العام للسودان وسردار الجيش المصري والضابط الممتاز بالجيش البريطاني بوحشية . وان حكومة صاحب الجلالة الملك لتعد هذا القتل الذي يجعل مصر الآن محل احتقار العالم المتمدن - نتيجة طبيعية لحملة العداة الموجهة ضد الحكومة البريطانية والرعايا البريطانيين في مصر والسودان ، تلك الحملة المؤسسة على الكنود الأحق بالنسبة للفوائد التي هيأتها بريطانيا ، تلك الحملة التي لم توقفها حكومة دولتكم ، والتي دبرتها هيئات على صلات وثيقة بحكومتكم . ولقد حذرتكم حكومة صاحب الجلالة منذ أكثر من شهر من النتائج التي سوف تترتب على فشلكم في وضع حد لتلك الحملة ، وبخاصة فيما يتعلق بالسودان ، ولكن لم يوضع لها حد ، وهاهي الحكومة المصرية تسمح بقتل حاكم السودان العام ، وتبرهن بذلك على أنها غير قادرة أو غير راغبة في حماية أرواح الأجانب . لهذا تطلب حكومة جلالة الملك من الحكومة المصرية :

١ - اعتذاراً كافياً عن الجريمة .

٢ - القيام بالتحقيق لمعرفة مرتكبي الجريمة وبأقصى النشاط الممكن

ودون احترام للشخصيات ، وتقديم المجرمين — أياً كانوا وأياً كانت سنهم — للعقاب الذي يستحقونه .

٣ — تمنع بكل شدة وتخضع كل مظاهرة سياسية شعبية .

٤ — تدفع الحكومة المصرية لحكومة جلالة الملك غرامة مقدارها ٥٠٠,٠٠٠ جنيه .

٥ — الأمر في مدى ٢٤ ساعة بسحب الضباط المصريين من السودان ، والوحدات المصرية الصميمة الموجودة بالجيش السوداني مع إدخال التغييرات الناتجة عن ذلك والتي ستذكر بعد .

٦ — إخطار المصلحة المختصة بأن حكومة السودان ستزيد مساحة أراضي الجزيرة التي تزرع بالرى من ٣٠٠,٠٠٠ فدان إلى مساحة غير محدودة ، وبالنسبة لما تدعو الحاجة إليه .

٧ — سحب كل معارضة فيما يتعلق بالمسائل المذكورة فيما بعد ، وذلك وفقاً لرغبات حكومة جلالة الملك فيما يختص بحماية المصالح الأجانب في مصر .

وإذا لم تنفذ هذه المطالب فوراً فان حكومة جلالاته ستتخذ في الحال الإجراءات الفعالة لحماية مصالحهما في مصر والسودان . «

ولقد فصلت المطالب المذكورة في المادة الأخيرة في وثيقة منفصلة . وهي ضرورة اعتبار الوحدات السودانية في الجيش المصرى جزءاً من قوة الدفاع السودانية التي تدين بالولاء لحكومة السودان فقط ، ووجوب إعادة النظر في مسألة استبعاد الموظفين الاجانب بما يتفق والمصالح البريطانية ،

ووجوب إبقاء المستشارين المالي والقضائي.

ولما حلت شفرة البرقية الواردة من وزارة الخارجية وجد أنها حذفت طلب التعويض وطلب إعادة النظر في مسألة الموظفين على حين غيرت طلب رى منطقة غير محدودة من أراضى الجزيرة إلى : « زيادة رى الجزيرة إلى الحد الذى يمكن اعتباره غير ضار بمصر عن طريق لجنة فنية تضم إليها عضواتعيينه الحكومة المصرية ». كما خففت لهجة الاتهام الموجودة فى الديباجة . ولو قرأت وثيقة وزارة الخارجية عقب الحادثة فى جو هادىء وبغير عجلة لأمكن اعتبارها عرضا لوجهة النظر البريطانية أكثر اتزاناً وأقل تعرضا للاتهام بالانتقام وبالتحرى عن فرصة الكسب مما اتهم به البعض إنذار ألنبي . فقد احتج هؤلاء بقولهم إن المطالبة بثمان الدم أمر مشين بينما تعويض الموظفين ورى السودان مسألتان لا علاقة لهما بالقتل . ومع أن الحكومة البريطانية قد أيدت إنذار ألنبي إلا أنها انزعجت لما اعتبرته من عملا مفاجئا عنيفا وطلبت منه إيضا حاله . ورد ألنبي بقوله إنه اعتبر المطالبة بذلك المبلغ الكبير أمرا ضروريا ليقنتع المصريون بالنتائج الإجرامية لسياسة حكومتهم ، وأنه قصد برى الجزيرة نفس السبب لتظهر لمصر القوة التى نستطيع استخدامها إذا لزم الأمر بسيطرتنا على السودان . ولم يقصد ألنبي أبدا برى منطقة غير محدودة أن تروى فى الحقيقة من غير اعتبار للمصالح المصرية . ولكنه أراد بذلك أن شيئا من التنازل يمكن تقديمه لحكومة مصرية أكثر صداقة .

ولقد ضمت مسألة حقوق الموظفين الأجانب فى مطالب الإنذار كأفضل حل لصعوبة قائمة ، ولكى لا يقدم مثل هذا الطلب الى حكومة صديقة تخلف حكومة زغلول التى توقع ألنبي استقالتها التى كان يطمع فى مجيئها نتيجة لإنذاره

ويمكن قول الكثير عن وجهة نظر اللبني التي لقيت التأييد الإجماعي النافع من الجالية البريطانية والجاليات الأجنبية في مصر .

وجاء الرد المصري الذي أعلن اشمئزازه من تلك الجريمة بعدم الموافقة على أي مطلب من المطالب السابقة إلا على مطلب التعويض فقط . ثم أسرع اللبني باخبار الحكومة المصرية عن إصداره الأوامر المتعلقة بسحب القوات المصرية من السودان ، وباعطائه مطلق الحرية لحكومة السودان في زيادة المساحة التي تروى من أرض الجزيرة . كما أمر باحتلال الجمارك المصرية باسكندرية ضمنا لتنفيذ شروطه الأخرى . وكان ذلك منه مرة ثانية إقداما على عمل لم ينتظر عليه موافقة حكومة صاحب الجلالة . وهنا استقالت وزارة زغلول بعد أن دفعت ١ مليون جنيه مع عدم موافقتها على تنفيذ المطالب الأخرى ، وارتقى « زيور باشا » رئاسة الحكومة . لم يكن على مقدرة عظيمة ولكن كانت له شجاعته كبيرة وتفاؤل لا تخمد جذوته . وهو من أصل قوقازي . ولو أنه مسلم إلا أنه تلقى مبادئ تعليمه عند الجزويت . كان ضخم الجسم ، فيه روح المرح التي كثيرا ما تلازم مثل تلك الضخامة التي اضطرتهم إلى عمل مقعد خاص به في رئاسة مجلس الوزراء . وهو لغوى قدير ، ومن طبيعته — ولو أن ذلك مما يضايق — أن يمزج في كلامه بين اللغات المختلفة فيتكلم بالإنجليزية والفرنسية والإيطالية والعربية والتركية في آن واحد . وكانت تنحدر على أسفل خده الأيسر دمعة لا تنقطع ، إذ لم يكن يخلو منه قط من سيجارة في جانب من جوانبه يدخل دخانها في عينه .

ولقد سبق لزيور أن تبوأ المناصب الوزارية مرات عدة منذ سنة ١٩١٩ ولما ارتقى الحكم زغلول سنة ١٩٢٤ اختير أول رئيس لأول مجلس شيوخ

مصرى . وهو مؤمن بالصدقة الانجليزية وبذلك كان بطبيعته ومظهره الرجل المطلوب للخروج بمصر من هذا الموقف الصعب . كان له من رأى الصائب ما يفهم به أن السياسة الوحيدة لمصر هي موافقتها على المطالب البريطانية بغير سؤال . وكان خبيراً بالانجليز بحيث أدرك تماماً أنهم لن يكونوا ظالمين بعد أن يفرغ غضبهم . فوافق على شروط الانذار . وجلت بذلك الجنود البريطانية عن الجمارك ، وكما سبق لألنبي عند ما رسم خطته بالشطط في مطالبه بات من الممكن الآن التساهل مع حكومة صديقة . كان من نتائج ذلك أن حددت المساحة التي ستروى من أرض الجزيرة لجنة مثلت فيها مصر .

هكذا كانت قصة مقتل السير لى ستاك ، وهكذا كان الدور الذى لعبه ألنبي فى الحصول على الترضية عنها . أما من وجهة نظر الحكومة المصرية فكان — كما قيل عند اعدام دوق « دانچين » d'Enghein قبل ١٣٠ عاماً — « إنها أسوأ من جريمة ، إنها غلطة فاحشة » ويمكن تبرئة زغول من أى معرفة سابقة بالجريمة وان يكن أدرك تماماً نتائجها المشؤمة التى عادت عليه ، حتى قال بحزن بعدها بقليل « كانت ضربة قاضية لى » ويبدو أنه لم يقدر أبداً مسئوليته هو عن القتل بفشله فى السيطرة على أشد أتباعه تطرفاً .

وأما من وجهة النظر البريطانية ، فقد حل ذلك القتل العلاقات الانجليزية المصرية عند ما تهددت بخلق أزمة حقيقية ، حتى ليتمكن القول بأن جثة السردار كانت تهيئة من الأقدار لحل موقف لم يكن يطاق . ولقد قوبل عمل ألنبي بالمدح لشجاعته وتصميمه ، كما لقي القدح لتهوره وفضاظته التى لا مبرر لها . ولكن أجمع الذين شهدوا الموقف وعرفوا المصريين على تأييده تقريباً . أما البعيدون عنه فقد اتهموه بنقدهم . بينما فهم المصريون أنفسهم اليد القوية ،

ولم ينتظروا هم أقل من ذلك . ولكن يجب أن نتذكر الحوادث التي عمل
اللنبي تحت تأثيرها ، فلقد رأى السردار الجريح المتألم يحمل إلى دار المعتمد
كما أحس بموجة السخط التي أثارها الجريمة في نفوس البريطانيين والأجانب
المقيمين بمصر فشعر بأن المصريين خانوه . لقد كانت له اليد الطولى في
الحصول على استقلالهم ، فهو الذى صمم - ضد آراء كثيرة - على أن
يعطى المصريون الفرصة لإدارة شئونهم الخاصة ، ثم تحمل الأخطار للوصول
إلى تلك الغاية - لا فيما يتعلق بسمعته فقط - التي لم تكن تعنيه قط -
بل فيما يتعلق أيضاً بأرواح مواطنيه ومصالحهم - وهي التي كانت تعنيه جداً
ثم ها هو يجازى على دفاعه عن مصر بتلك البطولة بهذه الجريمة . لذلك كان
انفعاله قوياً ، أشبه بغضبه عند ما كان يجد ضابطاً وثق به لا يستحق هذه
الثقة . لم يغفرها لزغول أبداً ، بل كان يتكلم عنه بعد ذلك فيقول ، ذلك
العجوز الخبيث .

ولم يتم إخراج الوحدات المصرية من السودان بغير قلاقل خطيرة .
فسحبت الوحدات المصرية نفسها بعد أن تظاهر بعضها بالمقاومة ، ولكن
قامت قوة سودانية أفسدتها الدعاية المصرية - وكانت أشد مراساً - بثورة
لم يخمدتها إلا إراقة دم كثير . ومما يثبت أن رأى اللنبي وتقديره لمصر لم
يذهب به مقتل سيرلى ستاك ، رفضه تأييد طلب حكومة السودان القوى إزالة
العلم المصرى من كل أبنية السودان .

اختتمت سنة ١٩٢٤ التي كانت ذات أهمية كبيرة في الشؤون المصرية بنهاية
أهدأ نسبياً . فلقد قبل زيور باشا جميع المطالب البريطانية وظفر ببعض
التساهل من البريطانيين . وعين صدق باشا - وهو شخصية قوية - وزيراً
فانهمك في إصلاح ماسبيته إدارة زغول من أضرا . ثم حل البرلمان على أن

تجرى الانتخابات الجديدة في أوائل سنة ١٩٢٥ .

وقدم أالنبى استقالته من منصب المعتمد البريطانى ، ولم يعرف ذلك وقتها على وجه العموم . وقد رفض سحب استقالته رغم رجاء وزارة الخارجية المتكرر ، ولو أنه وافق على الاستمرار مؤقتاً فى الخدمة . ومع إن أسباب استقالته ترجع إلى نهاية ١٩٢٤ إلا أنه يحسن معالجتها فى الفصل الخاص لسنة ١٩٢٥ ، وقت أن نفذت استقالته .

الفصل الثامن

١٩٢٥ - أللني يغادر مصر

حضر أللني الى مصر وسط عاصفة هوجاء وغادرها وهي في هدوء رائع يناقض اضطرابها يوم مجيئه ، وييشر بالكثير من الخير . ولقد ازدادت اليوم رفعة المكانة التي بلغتها بريطانيا في مصر عما كانت عليه منذ أن غادرها لورد كيتشنر في ١٩١٤

التيمس في ٢٠ يونيه ١٩٢٥

سنصف باختصار - قبل أن ندرس الأسباب التي أدت إلى استقالة أللني - الحوادث السياسية التي وقعت في الستة الأشهر الأولى من ١٩٢٥ إلى الوقت الذي غادر فيه أللني مصر . فلقد صفا الجو بتلك العاصفة التي هبت على أثر مقتل السير لي ستاك وأعقبها فترة من الهدوء النسبي . كذلك أدت جهود صدقي باشا - التي تمتاز بالكفاية رغم خروجها على كل مبدأ - لإضعاف قوة حزب زغلول الى معركة انتخابية وشيكة الحدوث للبرلمان الجديد . ثم جاءت نتيجةها النهائية في مارس بالتعادل الظاهر بين الحكومة والمعارضة حتى اعتبرها الطرفان نصراً لكل منهما ، ثم اجتمع البرلمان في العاشرة من صباح ٢٣ مارس . ولما استأنف عمله - بعد أن افتتحه الملك رسمياً - بدأ بانتخاب زغلول رئيساً للمجلس بأغلبية ١٢٣ صوتاً مقابل ٨٣ . فكانت صدمة لوزارة زيور الذي كان يعول على أغلبية يمثلها . وبدأت جلسة المساء

في الخامسة ولم يحضرها واحد من الوزراء، ثم استمرت طبيعية حتى ٧,٤٥ مساء عند ما فتحت الأبواب ودخل رئيس الوزارة يتبعه أعضاؤها ثم قرأ مرسوماً ملكياً بحل البرلمان فسكأنه بذلك قد مكث أقل من ١٠ ساعات، وكان بكل تأكيد أقصر برلمانات التاريخ عمراً. ووعدت الحكومة بإجراء انتخابات أخرى في الخريف بعد أن تصدر قانون انتخاب جديد.

وبقيت الحال هادئة في نفس الوقت وكانت الحادثة الرئيسية وقتئذ هي القبض والمحكمة والأدانة لقتلة السردار. جاءت إدانتهم نتيجة لعمل باهر من أعمال البوليس قام بالدور الأول فيه ضباطه البريطانيون. وكانت الصعوبة في هذه الحادثة ككل الجرائم السياسية الأخرى التي وقعت في السنوات الأخيرة في مصر هي الحصول على الأدلة ضد الجناة الذين كانوا معروفين كثيراً أو مشتباه فيهم بقوة من البوليس وأحياناً ما كان يقبض على الفعلة الحقيقيين ثم يطلق سراحهم لقلّة الأدلة ضدّهم حدث أن كانت هذه العصابة المنظمة المسؤولة عن حوادث القتل تهدد - لو استلزم الأمر - الشهود لكي لا يتقدموا، بل كانت - عند الضرورة - تعد شهودي الزور للدفاع عن أعضائها! وعلى ذلك فما دام لم يقبض على القتلة وأيديهم ملوثة بدماء ضحاياهم فإن الأمل الوحيد بقي في أن يؤخذ الاعتراف من أحدهم بالحيلة أو بوعده بالعفو عنه.

وبعد بحث طويل استطاع رؤساء البوليس البريطانيون أن يثقوا من طالب حقوق قديم سبق له أن اشترك في ١٩١٥ بدافع خاطيء من الوطنية في محاولة للقضاء على السلطان حسين. وحكم عليه بالإعدام ثم خفف إلى حكم بالأشغال الشاقة المؤبدّة واشتغل في ليمان طره عشرة أعوام في تكسير الحجارة قبل أن يسمح له بمغادرة السجن بعد أن صدر العفو العام. ولما

أفرج عنه ووجد أن أولئك الذين استخدموه إنما استغلوا فيه وطنيته فقط كأداة لهم، ثم لم يعد لهم حاجة به الآن، فقد صمم على الانتقام، ثم اشتركت العوامل المختلفة — من الأمل في ١٠,٠٠٠ جنيه وهي المكافأة المعروضة لمن يدلى بالمعلومات عن قتلة السردار؟ إلى الأمل في أن يفوز بالعفو عن جريمته الأصلية — في دفعه إلى خدمة البوليس. فظهر في صورة من يتحرق إلى الانتقام من البريطانيين حتى حاز ثقة هذه العصابة القتالة، وأصبح بسرعة قادراً على أن يخبر ضابط البوليس الذي يشرف على القضية بأسماء قتلة السردار ولقد قرر أن يستخرج البوليس بالإرهاب والاعتراف من أضعف عضو في العصابة وهو طالب مصرى شاب. وقبض على عضو مع الجناة الآخرين وسمح بإذاعة تقرير قيل إنه اعترف فيه. ولقد حمل وكيل البوليس الطالب وأخاه — وكان عضواً آخر من أعضاء العصابة — على الاعتقاد بأن الاعتراف قد تم فعلاً، ولما وجد أن منزلها يراقبه البوليس، قاما في محاولة جنونية للهرب إلى ليبيا بطريق الصحراء الغربية، آخذين معهما الأسلحة التي استعملت في حادثة القتل، وهناك عند حافة الصحراء قبض عليهما. ثم اعترف أضعف الأخوين وهو في حالة ذعر فظيع.

وقد وقعت حوادث القبض في نهاية يناير فلم تأت نهاية مايو حتى قدم سبعة من الرجال للتحاكم بتهمة القتل، وحكم بالإعدام على ستة نفذ الحكم في خمسة منهم. أما الطالب الذي انقلب شاهداً فقد استبدل إعدامه بالأشغال الشاقة المؤبدة، بينما تسلم وكيل البوليس مبلغ ١٠,٠٠٠ جنيه مكافأة مع العفو عنه في الجريمة التي ارتكبها ١٩١٥.

وهكذا ختم الفصل الأخير في المأساة التي كان لها أعظم الأثر في تاريخ

مصر . وغادر اللبني مصر — وهو من قام بدور من أدوارها الرئيسية —
بعد أسبوع من النطق بالحكم .

أما الحادثة التي أدت إلى استقالة اللبني فهي القرار المفاجيء لوزير الخارجية
مستر اوستن تشمبرلن في فترة الأزمة التي أعقبت مقتل السردار ، فأرسل إلى
مصر — دون أن يستشير اللبني — موظفاً دبلوماسياً أقدم منه ، وسرعان
ما أصبح هذا بطريقة آلية ممثل وزارة الخارجية الرئسي في مصر ، ومستشار
اللبني المهم . وكان هذا العمل من وجهة النظر الحربية مساوياً لطرد أهم ضابط
في أركان حرب جنرال — في أثناء المعركة — دون التنبيه عليه . وطبيعي
أن يعتبر اللبني ذلك عملاً يتضمن عدم الثقة بكل من ضباطه وبه .

ولو أن هذا القرار جاء مفاجأة إلا أن جذوره ترجع إلى زمن بعيد . فلقد
وجدت منذ تصريح ١٩٢٢ وجهة نظر لجماعة من ذوى النفوذ في لندن داخل
وزارة الخارجية وخارجها على السواء ، استمروا في كرههم للقرار الأصلي
الذي فرضه اللبني على الحكومة ثم راحوا يتطلعون بنفور متزايد إلى المصير
الذي انقلبت اليه الحوادث في مصر والطريقة التي فسرت بها سياسة التصريح
وطبقت . ولقد ازداد ذلك النقد الموجه إلى اللبني قوة وانتشاراً خلال ١٩٢٤
عند ما كانت القوة في يدي زغلول ، فكان يجد ذلك النقد الوقود المستمر في
الرأي العام البريطاني — وأحياناً عند الأجانب — في مصر نفسها . وأكبر
ما وجه إلى اللبني من التهم هي أن ضعفه وعضاؤه أمام الهياج الذي وقع في
مصر قد عرضا مصالح بريطانيا بل حتى حياة البريطانيين أنفسهم للخطر . ثم
بدا مقتل السير لي ستاك مبررا لهذا النقد . ومع أنهم أقرروا الشدة التي أظهرها
اللبني عقب الحادث ، فقد اعتبرت شروط إنذاره خطلاً في الرأي ، وعد عمله

ذلك عملاً لا روية فيه ، فلقد بدا أَللنبى فى نظر وزير الخارجية كأنما أخذ الشكيمة بين أسنانه ولذلك صمم وزير الخارجية على أن يستعمل له «الفرملة» وسرعان ما هرع إلى مستر نيثل هندرسون وأمره بالذهاب إلى القاهرة . ولو قد جاء هذا التعيين بعد مشاورة سابقة لأَللنبى لكان خليقاً به ألا يرفع صوته بكلمة اعتراض ، وكما حدث فإن نص وطريقة كل من التعيين العلنى والتبليغات الرسمية إلى أَللنبى مما يعتبر شيئاً من سوء الحظ .

لقد قصد بالتعيين العلنى أن يكون مستر هندرسون «وزيراً كامل التفويض» ، بينما يعمل بالمفوضية فى القاهرة . وهذا هو اللقب العادى لدرجة الوزير فى السلك السياسى ، كما لم يرد به أن يتضمن شيئاً غير مألوف ، ولكن لحدوثه فى ذلك الوقت جعل من الطبيعى أن يفسر ذلك فى القاهرة على أنه إشارة تنطوى على رسالة خاصة هى تغيير فى السياسة وإلى حد ما على الأقل إلغاء سلطة أَللنبى . ولقد ارتكب مستر تشمبرلن بطريقة تبليغه التعيين لأَللنبى ما يصح أن يعد دائماً غلطة خطيرة فى معاملة أَللنبى إذ لم يكن تام الصراحة معه وهذه هى الأسباب التى دعت إلى تعيينه لمستر هندرسون .

« إنى لمتأثر من الصعوبة التى ألقاها فى محاولة وضع رأى وغرض حكومة جلالة الملك فى متناول يدك ، بمجرد برقيات متبادلة وعلى ذلك فقد قررت أن أرسل مستر نيثل هندرسون إلى القاهرة . إنه موظف ذو خبرة فائقة ، ولقد شرحت له مشافهة شرحاً وافياً — مما لا يمكن توفره فى المراسلات التلغرافية — الأغراض التى ترمى إليها حكومة جلالة الملك ، والصعوبات التى تود لو تتفادها ولقد وضعت فيه ثقتى التامة ويقينى أنه سيسير لك العمل بالبيانات التى سيكون فى مقدوره أن يقدمها لك وسينضم الى رجالك بدرجة وزير ، وسوف يخفف

كما أرجو من العبد الذي لا بد أن يكون على رجالك القليلين هذه الأيام .
وكان أول رد لألنبي على ذلك وهذا — من خصوصيات ولائه لرجاله —
أن أبرق إلى وزير الخارجية بأنه سيكون سعيدا بتلقى مساعدة مستر هندرسون
في أثناء فترة الشدة ، وبأن يعرف منه رأى وغرض حكومة صاحب الجلالة ،
لكنه سيكون مسرورا لو أخذ تأكيذا بأن القصد من ذلك ليس هو إراحة
مستشاره كلارك كر (Clark Kerr) الذي يضع فيه كما يضع في بقية رجاله
ثقته الكاملة . وكان الرديرى إلى أن وزير الخارجية — ولو لم يقصد إهانة هذا
المستشار — إلا أن مستر هندرسون — بالطبع — سيصبح المقدم على كل
رجل من رجال ألنبي .

ورأى ألنبي في نفس الوقت أثر التعيين العلنى فى مصر ، فأبرق بأن ذلك
قد حمل على أنه مساو لتنجيته عمليا ، وأنه قد أضعف مكانته إضعافا شديدا ،
وسيصبح مركزه فى الواقع غير مفهوم ، مالم يستطع وزير الخارجية أن يرى
لنفسه مخلصا يصحح به ذلك الأثر بإصدار بيان فى الحال يقول فيه إن
مستر هندرسون إنما جاء فقط بقصد دراسة الموقف وتسهيل تبادل الآراء بين
وزير الخارجية وبينه ، وأنه سيغادر مصر الى لندن بعد أسبوعين من
وصوله .

كان شعور ألنبي فى الواقع حياىل غرض وزير الخارجية الذى صرح به
من « وضع رأى وغرض حكومة جلالة الملك فى متناول يده تماما » أنه يمكن
أن يتوفر ذلك — إن لم يكن أفضل منه بزيارة مؤقتة ، أكثر مما يتوفر بالتعيين
الدائم ، ومع ذلك فلو أن هذا التعيين قد تم بسبب عدم الرضى عنه أو عن
رجالها لكان من الواجب أن يقال ذلك صراحة .

ثم تبودلت برقيات عدة جرت على هذا المنوال حاول فيها وزير الخارجية إقناع النبي بأن التعيين كان تعيينا عاديا ، يقصد به فقط تقديم المعاونة له وملا الفراغ الشاغر بين رجاله . بينما أصر النبي على أن أثر التعيين في مصر كان مما يؤسف له ، وأنه ما لم تصبح زيادة مستر هندرسن مجرد زيارة مؤقتة ، فإنه سيحافظ على عزمه على الاستقالة . وكانت آخر برقية في سلسلته ما يأتي :

« إما أن يكون لك ثقة بي أو لا يكون . وحيث إنك قمت بتعيين عجيب لرجل من رجالى في أثناء أزمة دون أن تستشيرنى ، وأعلنت ذلك من غير أن تترك لى فرصة أعبر فيها عن رأي ، فانى أعتقد أنك لا تثق بى . وإذن يكون من واجبي أن أستقيل . ولكن يجب أن تعرف أنه فى بلاد كهذه يكون التفسير الوحيد فيها لمثل هذا التعيين هو عدم الاصرار على الغرض ، مما يعد فى مثل هذه اللحظة مصيبة من المصائب . لست أبغى سوى المصلحة العامة ، لكنى لا أرى مخلصا من هذه المشكلة ما لم تستطع أنت عمل الترتيب لإعلان أن هندرسن إنما جاء فقط برسالة خاصة ، ولفترة وجيزة جدا ، وسيسرنى - كما قلت فى برقيتى السابقة لقاء مستر هندرسون ، وتلقى معونته وإنى لأقرر تضامنى معك التضامن المطلق فى التعاون الصادق المفيد فى هذا العمل المهم العام . ولست أحب أن أقحم مسألة استقالتي فى هذه اللحظة ، غير أنى لا أزال عند برقيتى السابقة فى يوم ٢٧ نوفمبر ، .

وللأسف ازداد شك النبي فى إخلاص مستر شمبلرن باكتشافه عند وصول مستر هندرسن ، أن الوزير الذى كان يريد أن يضع فى متناوله تماما رأى وغرض حكومة صاحب الجلالة ، قد دعى فى الواقع على عجل من إجازته وأنه حظى فقط بمقابلة واحدة مع وزير الخارجية قبل أن يقوم بالسفر . كما

لم تكن له خبرة بمصر سابقة .

وبعد ذلك بأسابيع ثلاثة ، عندما انتهت عمليا الأزمة التي سببها مقتل
السرदार كتب مستر شميرلن لألنبي يأسف على « سوء التفاهم ، الذي وقع
بينهما ، ويسأله السماح بأن يقدم استقالته .

« إذ أن الرغبة الطبيعية لرجل عظيم خدم التاج ، هي أن ينتهز الفرصة التي
أتاحها انتهاء فصل من علاقاتنا بمصر ، وابتداء آخر كوقت مناسب لنشيدان
الراحة من عناء مثل هذه الفترة المديدة والخدمة الشاقة ، وللختام الطبيعي
والأشرف لمجرى حياتك العظيم في الشرق الأدنى أولا كجندي والآن
كسياسي . »

وأقر ألنبي الروح التي أملت على مستر شميرلن خطابه ، ولكنه رفض أن
يوافق على اعتبار المسألة مجرد سوء التفاهم مؤقت ، وكتب عن الاقتراح
الخاص بالأسباب التي يقدم بها استقالته يقول :

« ليست لي مشاعر خاصة في هذه المسألة ، لكني - ولو أني أشكرك
على الحل الذي اقترحتة - لا أستطيع أن أطلب التخلي بقصد الاستراحة من
عناء لا أحس به وعلى ذلك يجب أن أرجو - عندما تنتهي الأزمة - أنك
سوف توافق على طلبي بخصوص السماح لي بالاستقالة من عملي الحالي على
الأساس الذي قدمته في برقيتي بتاريخ ٢٦ نوفمبر . »

وكم كان كدر ألنبي عظيما عندما ظهر الخبر بأنه قدم استقالته في جريدة من
من جرائد لندن ، وعندما أبرق بالخبر إلى مصر . وقد كان هو في نفس الوقت
هدفا لهجمات سامة وبوجه خاص في بعض النواحي من صحافة لندن . لم

يسبق لرجل أن أعاز النقد الشخصي انتباها أقل منه ، ولكن كان لهذه الهجمات
ولخبر استقالته أقوى الأثر في اضطراب الموقف السياسي قبيل الانتخابات ،
كما كانت مما تشجع به الزغوليون . وعلى ذلك طلب ألنبي أن يكذب الخبر
الخاص باستقالته ، واقترح بأن تكف الصحف المسؤولة هنا عن هجماتهم
قصيرة ، تلك الهجمات الضارة بمصالحنا ، والتي ربما كانت العامل الحاسم في
نجاح الزغوليين أو هزيمتهم ، ثم أضاف « لو أنهم أحبوا العودة إلى الهجوم
بعد أسبوعين أو ما يشبه ذلك ، فلن تجدى هذه الاعتراضات بعدها . »

وكتب ألنبي برقية في ٢ مايو لوزير الخارجية يقول إنه يعتبر الوقت الذي
يجب فيه عليه أن يقدم استقالته للملك ويعلنها قدحان . ولقد عارضت خطابا
لمستر شميرلن كتب قبل ذلك بيومين ، يذكر فيه نفس الاقتراح ، ويبدو أنها
كانت المرة الوحيدة في هذه المأمورية المؤسفة التي كانا فيها على اتفاق تام .
ولكن كانت لا تزال هناك واقعة قبل ختام الفصل لكي تضيف إلى حنق
ألنبي . فلقد طلب — بوجه خاص — أن يعطى إشارة قبل يومين عن التاريخ
والساعة التي سيعلم فيها اسم خلفه حتى يستطيع أن يخبر الملك فؤاد ورئيس
الوزراء قبل أن تصل الأخبار إلى مصر ، كما أنه نصح بشدة أن يصحب التعيين
تأكيد بأن تغيير الأشخاص لا يعنى تغييرا في السياسة ثم بعد ذلك بأسبوع علم
من تلغراف لروتر بأن سيرجورج لويد قد قبل مركز المعتمد البريطاني خلفا
له . وكان الإعلان — ولو أنه غير رسمي — صحيحا . ومن الطبيعي أن يغضب
ألنبي من عدم أخذ رأيه ، ومن الإهمال الذي سمح بأن يصبح خبر التعيين
ملكيا مشاعا في مصر قبل أن يعلم هو نفسه به .

غادر ألنبي مصر بعد شهر في ١٤ يونية . وكان هذا الشهر الأخير له

بمصر فرصة لسلسلة رائعة من المدائح وجهت لعمله ولشخصيته في صحف
بريطانيا وفي مصر على السواء ، ومن جميع الجاليات في مصر ، ولقد استخدم
أصدقاء النبي في وزارة الخارجية نفوذهم لدى الصحف في وطنه لمصلحته ، كما
بذلوا جهدهم للتحقق من أن ما قام به قد اعترف به في مقالات كتبت عقب
رحيله . لم يلق هو انتباهه للهجمات الخبيثة التي وجهت ضده في بعض الصحف
قبيل ذلك ، وربما كان له الحق في أن يتيه فرحا بالثناء الذي ناله في سواها . ولم
يكن هو حسن الرأي في قيمة مديح وهجاء الصحفيين ، ولكن كان التعبير عن
رأى المصريين من الذاتية والصدق بحيث لا يمكن أن يكون مخطئا . لقد
أدخل على قلبه السرور الحقيقي ، وزادته حرارة الشعور التي لم يتوقعها هو
إلا قليلا .

وربما كان أحسن تسجيل للأيام الأخيرة التي قضها النبي في مصر هذه
المقتطفات من الرسالة الرسمية التي بعث بها الوزير مستر هندرسون إلى وزارة
الخارجية .

٢٨ نوفمبر ١٩٢٥

من المناسب أن أسجل بعض الشواهد الرائعة لمدائح التقدير والحب التي
قدمت للورد وليدى النبي خلال المدة التي سبقت مباشرة مغادرتهم لمصر
فمنذ اللحظة التي عرف فيها الجمهور أخبار استقالة نخامته الموشكة وهو
وليدى النبي يتلقيان ما لا يحصى من الرسائل والبرقيات . ولا يمكن بأي حال
إنكار روح الاخلاص والإصالة فيها . لامن الانجليز والجاليات الأجنبية
فقط بل من كل ناحية من نواحي الرأى العام في مصر لو استثنينا
الزغوليين .

وعمر في نفس الوقت فخامتيهما طوفان من الدعوات لإقامة حفلات الوداع والتكريم لهما .

ولقد جعل قصر الوقت الباقي أمامهما مستحيلاً أن يقبلا من تلك الدعوات إلا القليل . فاقترصا بالنسبة للمصريين — على حفلات العشاء الرسمية في القصر، ومع رئيس الوزراء، وعلى حفلة تناول الغداء مع ثروت باشا، وعلى حفلة الشاي بعد الظهر في الكوكتيننتال وهي التي نظمها محمد باشا الشريعي ومبروك باشا فهمي وصالح الملووم باشا .

ولقد تبودلت الخطب الودية في هذه الحفلات الثلاث الأخيرة . وقد صرح قضاة لهم حق الحكم على هذه الحفلة الثالثة — حفلة الشاي بعد الظهر — بأنها كانت إحدى الحوادث الرائعة من نوعها التي شوهدت في مصر مما يمكن أن تعيه ذاكره المعاصرين . إذ اشترك فيها أكثر من ١٥٠٠ مدعو كلهم — إلا مائتين منهم — كانوا مصريين، وكان من بين هؤلاء عدد محترم من أعيان الأقاليم الذين سألوهم في أحوال كثيرة قبول دعواتهم أيضاً . ولقد تكلم معهم أو سلم بيده عليهم جميعاً، وكانت حرارة مشاعرهم من الوضوح بمكان . وإن حقيقة مجيئهم من مسافات بعيدة في أعداد كبيرة دون خشية من العواصف المحتملة لبرهان رائع على التغيير الروحي الذي أصبح ظاهرة ملحوظة في المرحلة الأخيرة من عمل فخامته

أما في يوم مغادرة فخامته للقاهرة فقد اصطفت على جانبي الطريق جماهير غفيرة أظهرت صداقتها، وكان المنظر في داخل المحطة ذاتها منظرأ رائعاً، وكان الحشد هناك — الذي وجد من الضروري تحديده بإصدار التذاكر — فريداً في بابه مما تعيه ذاكرة الحاضرين . ولقد عجز كثيرون من المصريين — وكانوا

أصدقاء مقربين للورد وليدى النبي - عن إخفاء عواطفهم . بل إن القطار الخاص الذهاب إلى بورسعيد قد أوقف - طاعة لرغبة الجماهير - في بنها والزقازيق حتى يتاح للأعيان إلقاء كلمات التوديع ، وأخيراً نظمت الجالية البريطانية في بورسعيد مأدبة غداء لفخامتيهما قبيل نزولهما إلى البحر .

ولقد أخذ لورد وليدى النبي نفسيهما - في الأسبوع الأخير - بالرد على جميع الرسائل التي وجهت لهما ، غير حافلين بما ينطوي عليه ذلك من جهد . وكان الأثر الذي تركه هذا العمل الأخير الدال على العطف في العقلية المصرية - وخاصة وهي كعادتها تستهويها مثل هذه التصرفات الدالة على الذوق - أثراً عميقاً . ولقد أخبرني أكثر من مصري - في إخلاص واضح - بأن رسالة توديع اللورد النبي له ستظل من أعظم كنوزه الغالية . ويمكن للانسان - على وجه العموم - أن يقول وهو واثق - إنه لا يوجد غير قليل من ذوى الاعتبار في مصر - من أية جنسية - من لم يترك فيهم رحيل فخامتيهما - لسبب ما أو لغيره - إحساساً بخسارة شخصية .

إن المصريين شعب عطوف ، تعجبه الطبايع الكريمة ، وهم شعب مهذب ، يقدرون الأخلاق الطيبة ، ولو أنهم شعب غير عنيف إلا أنهم يعجبون بالقوة ويحترمونها . ومع أن يد النبي كانت شديدة عليهم في بعض الأحيان ، فإنهم أدركوا العطف الذي تنطوي عليه سريره . لقد كان سمحاً ، بسيطاً ، مستقيماً - حتى في وقت قسوته - مع المصريين الذين عاملهم ، وما داخلهم الشك مطلقاً في قوة خلقه وغرضه ، ولقد أدهشهم أن رأوها متهمة في أعين مواطنيه .

تزييل

هكذا كان سجل الأثر الذي تركه اللبني في ست سنوات هامة مضطربة من تاريخ مصر ، لقد فهم هذا الأثر إلى الآن فهماً حسناً وقدر تقديرأ طيباً في مصر أكثر مما لقيه من ذلك في وطنه هو حيث هو جرم عمله أو أنكر . ومن الممكن أن تتمكن القصة التي قدمت في هذه الفصول من إظهاره أحسن من قبل . إن كل بريطاني في مصر لمدين له بدين من الشكر ، فلقد حافظ — في أشد الفترات صعوبة في العلاقات بين البلدين — على مصالح بريطانيا الهامة دون أن يقع منه ما يؤلم . ولقد وفر لمصر الاستقلال من حكومة آبية .

ومن المؤسف أن تنتهي مدته في مصر بجريمة مروعة ، وبعدم الوفاق الذي أدى إلى استقالته . ولولا ذلك لربما قد توج اللبني عمله ذلك بمعاهدة على أساس التحفظات ، تلك المعاهدة التي لم تتحقق إلا بعد ذلك بعشر سنين ، إذ لم يوجد الشخص الذي يضع المصريون في حسن عقيدته وأمانته ثقتهم العظمى كما وضعوها فيه . ولم يصفح اللبني قط عن الشخصين الذين كانا المسئولين قبل كل شيء : زغلول وأوستن شمبلرن ، وليس ذلك لأسباب تتعلق منه بالطموح ، أو لاحتفال منه بشهرته ، بل لأنه اعتبر زغلول خائناً للثقة التي أظهرها بالشعب المصري ، ولأن أوستن شمبلرن لم يكن بالنزاهة معه . وهذان هما الخطآن الذان كان يعاقب عليهما — طول حياته — بأقسى مقته : خيانة الثقة التي يضعها فيمن يعمل معهم ، وفقدان الإخلاص في القول وفي الكتابة .

ومن المحتمل أن يكون اللبني — من بين الثلاثة العظام — الذين عملوا في

مركز المعتمد بمصر : كرومر ، كتشنر ، أللنبي — أكثرهم قربا من قلوب
المصريين — على الأقل المصرى المتعلم — فلقد كان كرومر — البار والمستقيم
— محترما ، لكنه كان مكروها على التحقيق ، وكان كتشنر محبوبا معجبا به ،
ولكن يشك في أنه حظى بمثل المنزلة التي حظى بها أللنبي . أللنبي الذى أثرت
أمانته ونزاهته في الحديث والعمل في جميع المصريين الذين اتصل بهم .
كذلك قدرت شخصية لادى أللنبي وجاذبيتها تقديرا كبيرا .
لقد خلف أللنبي لورد لويد . وكانت سياسته البطش ، ولكن لا البطش
ولا قلم السياسى الطبع أو لسانه المقنع بقادرة على تغيير الحقيقة التى أدركها
أللنبي في مصر ، وهى الروح الذى استيقظ في شعب مصر .

مطبوعات الجيل الجديد

١ - چان راسين للاستاذ محمد حمودة

صدر في أول مارس ١٩٤٥

٢ - في دنيا العدم وقصص أخرى للاستاذ حبيب توفيق

صدر في أول ابريل ١٩٤٥

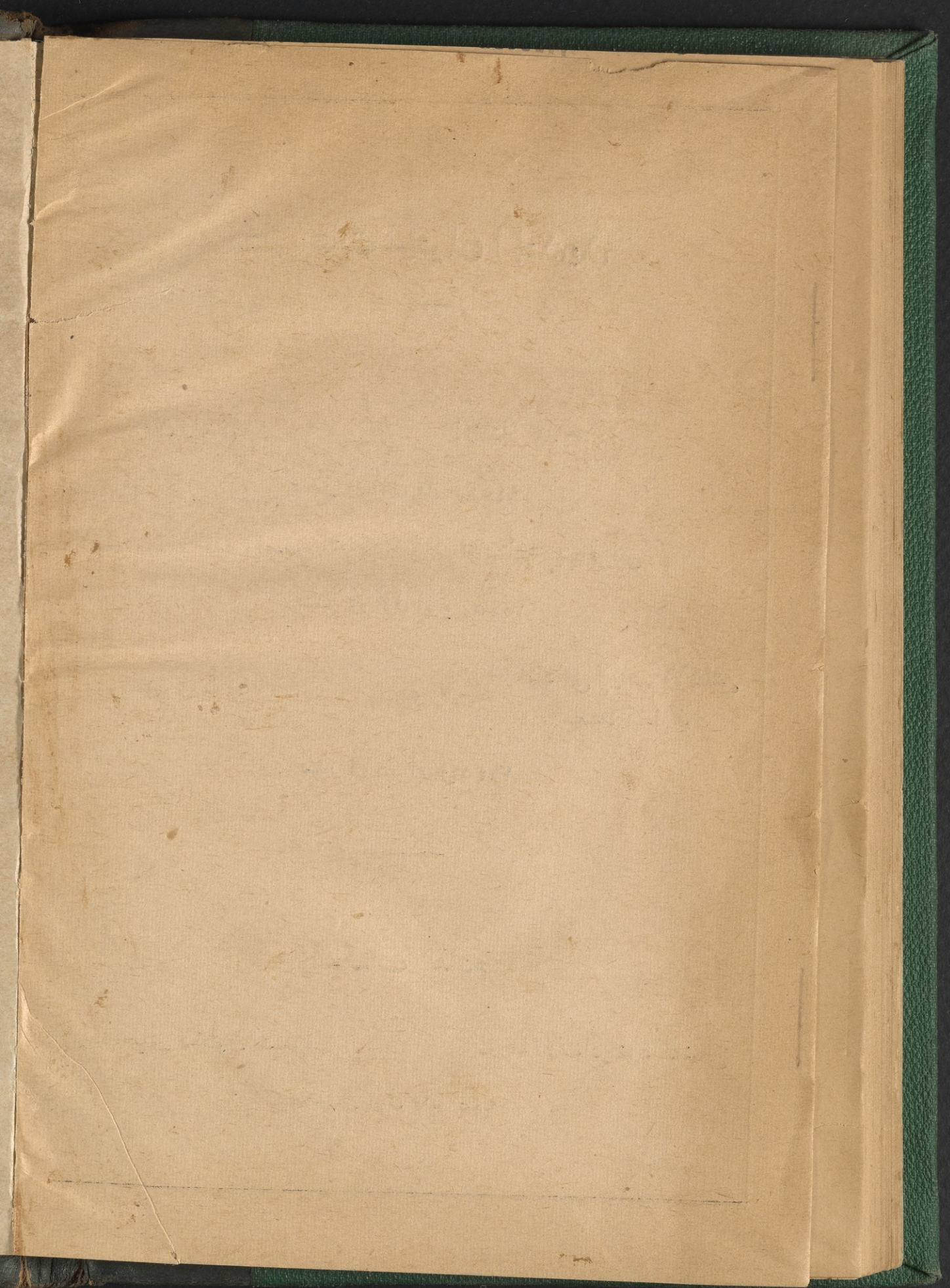
٣ - النبي في مصر) ترجمة
الاستاذ علي ابراهيم الاقطش)
مصطفى كامل فود

صدر في ١٥ أبريل ١٩٤٥

الكتاب القادم

٤ - حياتي لانطون تشيكوف ترجمة الاستاذ محمود الشنيطي

يصدر في أول مايو ١٩٤٥



v 150 28 516

b 131 89 992

DA
60.3
A6
W312x
1945

JAN 1976



